بسم الله الرحمن الرحيم

شـــــرح

الأربعين النووية

للإمام النووي رحمه الله (٦٧٦ هـ) .

بقلم

سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية – رفحاء

الموقع على الإنترنت

www.almotaqeen.net

قناة الشيخ العلمية على التلجرام

https://t.me/aloheemeed

.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ،

أما بعد :

فإن كتاب (الأربعين النووية) للإمام النووي رحمه الله يعتبر من الكتب المهمة التي كتب الله لها القبول والانتشار ، لأنه ضمنها الأحاديث التي هي من أصول الإسلام وقواعده .

ولأهمية هذه الأحاديث التي جمعها النووي رحمه الله ، فقد قمت بشرحها مستعيناً – بعد عون الله – بكلام العلماء .

سائلاً المولى عز وجل أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد

أخوكم

سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية – رفحاء

الموقع على الانترنت

www.almotaqeen.net

الحديث الأول

عن أمير المؤمنين أبي حَفْصٍ عمرَ بنِ الخطابِ بنِ نُفَيْلِ بنِ عبدِ العُزّى بن رياحِ بنِ عبدِ اللهِ بن قُرْطِ بن رَزاحِ بنِ عدِي بنِ كعب بنِ لُؤَيِّ بنِ غالبٍ القُرشِيِّ العَدويِّ ﷺ، قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ (إنّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امرِءٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكَحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْه). مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ .

==========

(**عن عُمَر بْنَ الْخَطَّابِ**) هو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيْل القرشي العدوي ، أمير المؤمنين ، وثاني الخلفاء الراشدين ، أسلم في السنة الخامسة أو السادسة بعد البعثة ، فكان في إسلامه عز للمسلمين ، قتله أبو لؤلؤة المجوسي عام: ٢٣ هـ ودفن مع النبي ﷺ وأبي بكر، وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأياماً .

(**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**) اختلف العلماء في معناها ، هل هما جملتان بمعنى واحد أو مختلفتان ؟

والراجح أن الأولى غير الثانية :

الأولى : (إنما الأعمال بالنيات) سبب ، بيّن النبي ﷺ فيها أن كل عمل لا بد فيه من نية ، كل عمل يعمله الإنسان وهو عاقل مختار لا بد فيه من نية ، ولا يمكن لأي عاقل مختار أن يعمل عملاً بغير نية .

الثانية : (وإنما لكل امرئ ما نوى) نتيجة هذا العمل : إذا نويت هذا العمل لله والدار الآخرة حصل لك ذلك ، وإذا نويت الدنيا فليس لك إلا ما نويت .

فجملة (إنما الأعمال بالنيات) جاءت متعلقة بحكم الشريعة على العمل .

وجملة (وإنما لكل امرئ ما نوى) جاءت متعلقة بحكم الشريعة على العامل .

أما العمل : لا شيء من العمل يقبل ويكون مشروعاً إلا بنية .

أما العامل: فإن حظ العامل من عمله على قدر نيته. فإذا صحت نيته صح ثوابه وعمله وإذا فسدت نيته ضاع ثوابه وفسد عمله.

ومن هنا عظمت عناية السلف بالنية ، قال ابن المبارك (كم من عمل صغير كبرته النية ، وكم من عمل كبير صغرته النية) .

(**إِنَّمَا الأَعْمَالُ**) والمراد (بالأعمال) ما يصدر من المكلف ويدخل فيها الأقوال .

(**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ**) الهجرة هنا : الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام .

(**إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ**) نية وقصداً .

(**فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ**) ثواباً وحكماً .

(**ومَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا**) حقيقتها ما على الأرض من الهواء والجو مما قبل قيام الساعة .

(**أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا**) نص عليه لشدة الافتتان بها وإلا فهي تدخل ضمن (دنيا يصيبها) .

(**فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**) أي: من حيث أنه لا ثواب له فيها ولا أجر، وقد يكون عليه فيها وزر .

فائدة : ١

هذا الحديث من الأحاديث المهمة التي عليها مدار الإسلام، فهو أصل في الدين وعليه تدور غالب أحكامه .

قال أبو عبد الله : ليس في أخبار النبي ﷺ أجمع وأغنى فائدة من هذا الحديث .

وقال الشافعي: يدخل في سبعين بابًا من أبواب العلم .

وقال النووي – رحمه الله –: أجمع المسلمون على عِظَم موقع هذا الحديث، وكثرة فوائده، وصحته .

وقال العراقي – رحمه الله –: هذا الحديث قاعدة من قواعد الإسلام حتى قيل: إنه: ثُلُث العلم، وقيل: رُبُعه، وقيل: خُمُسه، وقال الشافعيُّ وأحمدُ: إنه ثلث الإسلام .

استحب العلماء أن تستفتح المصنفات بهذا الحديث .

وقال عبدالرحمن بن مهدي: ينبغي لكل من صنف كتابًا أن يبتدئ فيه بهذا الحديث؛ تنبيهًا للطالب على تصحيح النية .

عن الإمام أحمد –رحمه الله– قال: أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث: حديث عمر (إنما الأعمال بالنيات) وحديث عائشة: (مَن أحدَث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رَدٌّ) وحديث النعمان بن بشير: (الحلال بيّن، والحرام بيّن) .

ولأهميته ابتدأ به الإمام البخاري صحيحه، وبدأ به الإمام النووي في كتبه: الأذكار، ورياض الصالحين .

فائدة : ٢

الحديث دليل على وجوب الإخلاص ، وأن الإنسان ليس له من عمله إلا بقدر نيته ، وأن الأجور في الأعمال الصالحة تعظم بعظيم ما في قلب العبد من سلامة القصد وصحة النية .

ولذلك قال ﷺ (وَإِنَّمَا لِكل امْرِئٍ مَا نَوَى) ومثل ﷺ بمثال من الواقع يبين هذا الأمر العظيم، وهو أن المهاجرين صورتهم الظاهرة واحدة، ولكن لما اختلفت النيات كان من هاجر لله ولرسوله مقبول الهجرة، مأجوراً عليها، ومن هاجر لغير ذلك من أمور الدنيا فهجرته مردودة غير مقبولة، ولا مأجور عليها، وقس على ذلك جميع الأعمال الصالحة، قال ﷺ : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُه) .

فائدة :

والإخلاص : تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين .

والأدلة على وجوب الإخلاص كثيرة :

قال تعالى (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) .

وقال تعالى (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ) .

وقال تعالى (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي) .

وقال تعالى (قُلْ إني أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين) .

وقال تعالى (هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وقال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) متفق عليه .

وقال ﷺ (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجه الله) رواه النسائي .

وقال ﷺ . قال تعالى (من عمِل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركَه) رواه مسلم .

وعن محمود بن لبيد. أن رسول الله ﷺ قال (إن أخوفَ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر؟ قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول الله عز وجل إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء). رواه أحمد

فائدة : ٣

الحديث دليل على أن العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصاً لله تعالى، والعمل الصالح لا يقبل إلا بشرطين:

الأول : أن يكون خالصاً لله .

لحديث الباب .

الثاني : أن يكون موافقاً لسنة النبي ﷺ .

لقوله ﷺ (من عمِل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم .

قال بعض العلماء : حديث (إنما الأعمال بالنيات ...) ميزان للأعمال الباطنة .

وحديث (من أحدث في أمرنا ...) ميزان للأعمال الظاهرة .

فائدة : ٤

الإخلاص له فضائل كثيرة :

أولاً : أنه سبب لمغفرة الذنوب .

والدليل : قصة المرأة الزانية التي سقت الكلب فغفر الله لها "والقصة عند البخاري ومسلم.

قال ابن القيم رحمه الله : فتأمل ما قام في قلبها من حقائق الإيمان والعبودية في هذه اللحظة ، فمنها : أنها لم تعمله ابتغاء الأجر من أحد لأنها تعطي كلباً فلا تنتظر منه جزاء أو شيئاً – وأنه لم يرها أحد إلا الله وهذا يدل عليه ظاهر الحديث – أنها أتعبت نفسها في سقايتها لهذا الكلب فنزلت في البئر مع أنها امرأة ثم ملأت خفها بالماء وحملته بفيها ثم سقت هذا الكلب الحقير ، فتأمل ما قام في قلبها من أسرار الإخلاص فعندما تمت هذه الحقائق في قلبها (أحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء والزنا فغفر الله لها) .

ثانياً : أنه يصرف الفتنة عن القلب .

قال الإمام ابن تيميه في الفتاوى (٦٠/١) : فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كلّه لله عز وجل .

ويوسف عليه السلام ما نجى من فتنة المرأة إلا بالإخلاص لله تعالى قال تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) .

قال ابن تيمية في الفتاوى (١٠/ ٢٦١) : فإن قوة إخلاص يوسف عليه السلام وخشيته من الله عز وجل كان أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها .

ثالثاً : أنه به تكمل العبودية لله تعالى.

قال الإمام ابن تيمية في الفتاوى (١٩٨/١٠) : وكلما قوي إخلاص العبد كملت عبوديته .

لأن بالإخلاص تقبل الأعمال وترفع إلى الله . وكلما قبل العمل ارتفعت المنزلة والدرجة عند الله تعالى لذلك العبد ، ولهذا كان من أبرز صفات المقربين والسابقين عند الله هو "إخلاصهم لله" فبالإخلاص ارتفعوا عن الناس وأصبحوا في أعالي عليين .

رابعاً : أنه سبب لاستغناء القلب عن الناس .

قال الإمام ابن تيميه في الفتاوى : لا يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، ولا يحب إلا له ولا يبغض إلا له .

خامساً : أنه سبب لمضاعفة الحسنات .

قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ)

قال ابن كثير : وقوله ههنا (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) أي : بحسب إخلاصه في عمله .

وقال ﷺ (والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ...) رواه البخاري .

قال ابن رجب : ومضاعفة الأجر بحسب كمال الإسلام ، وبكمال وقوة الإخلاص في ذلك العمل .

وقال ﷺ (صلاة الرجل تطوعاً حيث لا يراه الناس تعدل صلاته على أعين الناس بخمس وعشرين درجه) رواه ابن ماجة وصححه الألباني

سادساً : أنه سبب لقبول الدعاء وتفريج الكرب .

والدليل على ذلك : قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار وفيها أنهم قالوا : اللهم إن كنا فعلنا ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه ففرج الله عنهم ، والقصة معروفه وهي عند البخاري ومسلم .

سابعاً : أنه سبب للنصر على الأعداء .

لحديث سعد رضي الله عنه قال: قال ﷺ (إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم) .

ثامناً : أنه ينجي العبد من النار يوم القيامة .

لقول النبي ﷺ (فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله) رواه البخاري .

قال ابن تيمية في الفتاوى (٢٦١/١٠) : فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار، فمن دخل النار من القائلين لا إله إلا الله ، فإن ذلك دليل على أنه لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار .

فائدة : ٥

من أقوال السلف في الإخلاص .

قال الشافعي : وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم _ يقصد علمه _ على أن لا ينسب إليّ حرف منه .

قيل لسهل التستري – رحمه الله – : أي شيء أشد على النفس؟ قال: الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب .

فالنفس تحب الظهور والمدح والرياسة ، وتميل إلى البطالة والكسل ، وزينت لها الشهوات ولذلك قيل : تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال .

وقال بعضهم : إخلاص ساعة نجاة الأبد ، ولكن الإخلاص عزيز .

وقال بعضهم لنفسه : أخلصي تتخلصي .

وقال : طوبى لمن صحت له خطوة لم يرد بها إلا وجه الله .

كان سفيان الثوري يقول : قالت لي والدتي : يا بُني لا تتعلم العلم إلا إذا نويت العمل به ، وإلا فهو وبال عليك يوم القيامة .

وقال إبراهيم النخعي : من ابتغى شيئاً من العلم يبتغي به وجه الله آتاه الله منه ما يكفيه .

وقال الثوري : لو أعلم بالذي يطلب العلم لله لا يريد به إلا ما عند الله لكنت أنا الذي آتيه في منزله فأحدثه بما عندي مما أرجو أن ينفعه الله به .

وقال أبو داود الطيالسي رحمه الله : ينبغي للعالم إذا حرّر كتابه أن يكون قصده بذلك نصرة الدين لا مدحه بين الأقران لحسن التأليف .

وعن عون بن عبد الله قال : كان الفقهاء يتواصون بينهم بثلاث وكتب بذلك بعضهم إلى بعض : من عمل لآخرته كفاه الله دنياه ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس .

وقال أبو يوسف : يا قوم ، أريدوا الله بعلمكم ، فإني لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلُوهم ، ولم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أُفتضح .

قال الأعمش : إن لي عشرين سنة ما رأيت مخلصاً في علمه إنما صار العلم حرفة للمفاليس .

قال حمد بن سلمة : من طلب الحديث لغير الله مكر به .

وقال إسرائيل بن يونس : من طلب هذا العلم لله شرُف وسعُد في الدنيا والآخرة ، ومن لم يطلبه لله خسر في الدنيا والآخرة .

فائدة : ٦

فعلى قدر صدق الإنسان وإخلاصه يحفظ .

قال ابن عباس : إنما يحفظ الرجل على قدر نيته .

فائدة : ٧

علامة كون العلم لله :

قال مالك بن دينار : إن العبد إذا طلب العلم للعمل كسره علمُهُ ، وإذا طلبه لغير ذلك ازداد به فجوراً أو فخراً .

قال الذهبي : فَمَن طلبَ العلمَ للآخرة كَسَرَه العلمُ وخشع لله .

قال بعض السلف : من ازداد علما ولم يزدد خشية فليتهم علمه .

سُئِلَ الحافظ عبد الغني المقدسي :

لِمَ لا تقرأ من غير كتاب ؟ قال : أخاف العجب . [السير ٤٤٩/٢١] .

وقد قيل لذي النون المصري – رحمه الله تعالى – : متى يعلم العبد أنه من المخلصين ؟ فقال: إذا بذل المجهود في الطاعة ، وأحب سقوط المنزلة عند الناس .

وقيل ليحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: متى يكون العبد مخلصاً؟ فقال: إذا صار خلقه كخلق الرضيع، لا يبالي من مدحه أو ذمه.

قال النووي : من علامة المخلص أن يتكدر إذا اطلع الناس على محاسن عمله كما يتكدر إذا اطلعوا على مساويه فإن فرح النفس بذلك معصية وربما كان الرياء أشد من كثير من المعاصي .

قال ابن جماعة : حسن النية في طلب العلم بأن يقصد به وجه الله تعالى والعمل به ، وتنوير قلبه، وتحلية باطنه، والقرب من الله تعالى يوم القيامة ، والتعرض لما أعد لأهله من رضوانه ، وعظيم فضله .

وقال ابن القيم : لا يكون المتعلم ناجياً إلا بهذه الأمور الثلاثة : المخلص في تعلمه ، المتعلم ما ينفعه ، العامل بما علِمَه .

فائدة : ٨

قوله (**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ**) .

معناها (فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ) نية وقصداً (فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ) ثواباً وحكماً .

وهذا مثل ضربه الرسول ﷺ للعمل الذي يراد به وجه الله والذي يراد به غير الله ، وذلك بالهجرة :

فبعض الناس يهاجر ويدع بلده لله تعالى وابتغاء مرضاته فهذا هجرته لله ويؤجر عليها كاملاً . ويكون أدرك ما نوى ، وبعض الناس يهاجر لأغراض دنيوية ، كمن هاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام من أجل المال ، أو من أجل امرأة يتزوجها ، فهذا هاجر لكنه لم يهاجر لله ، ولهذا قال الرسول : فهجرته إلى ما هاجر إليه .

وقوله ﷺ (ومن كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ) أي : هو أظهر للناس أنه مهاجر لله لكن في نيته أنه هاجر من أجل امرأة يتزوجها أو من أجل دنيا يصيبها .

قال ابن الملقن : إن قلت لم ذم على طلب الدنيا وهو أمر مباح لا ذم فيه ولا مدح ؟

قلت : إنما ذم لكونه لم يخرج في الظاهر لطلب الدنيا ، وإنما خرج في صورة طالب فضيلة الهجرة فأبطن خلاف ما أظهر .

فائدة : ٩

الحديث دليل على فضل الهجرة لله ، حيث ضرب النبي ﷺ بها مثلاً في هذا الأصل الأصيل من قواعد الدين .

والهجرة لغة : الترك وشرعاً : ترك ما لا يحبه الله ويرضاه إلى ما يحبه الله ويرضاه .

والهجرة فضلها عظيم :

قال تعالى (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً) .

ففي هذه الآية وعد الله تعالى أن من هاجر في سبيله سيجد أمرين :

أولهما : مراغماً كثيراً .

وثانيهما : سعة .

والمراد بالأمر الأول كما يقول الرازي : (مراغماً) ومن يهاجر في سبيل الله إلى بلد آخر يجد في أرض ذلك البلد من الخير والنعمة ما يكون سبباً لرغم أنف أعدائه الذين كانوا معه في بلدته الأصلية .

والمراد بالأمر الثاني (سعة) السعة في الرزق .

فائدة : ١٠

وهي ٣ أنواع :

الأول : هجرة ترك المعاصي ، كما قال ﷺ (والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) رواه البخاري .

والثاني : مفارقة الدار والتحول عنها ، وهذا له صور أعظمها مفارقة بلد الشرك إلى بلد الإسلام .

والثالث : وهي أعظمها ؛ هجرة القلوب : وهي الهجرة العظيمة ، وهي إلى الله بالإخلاص وإلى رسوله ﷺ بالمتابعة .

فائدة : ١١

الحديث دليل على أن الأعمال قد تتفق صورة وتختلف قصداً وثواباً وأجراً .

فائدة : ١٢

الحديث دليل على التحذير من الدنيا وفتنتها .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) .

وقال ﷺ : (إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا) . متفق عليه

قال ابن الحنفية : من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا .

قيل لعلي : صف لنا الدنيا ؟ فقال : ما أصف من دار ؟ أولها عناء ، وآخرها فناء ، حلالها حساب ، وحرامها عقاب ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حَزن .

قال ابن القيم : الدنيا كامرأة بغي لا تثبت مع زوج ، إنما تخطب الأزواج ليستحسنوا إليها ، فلا ترضى إلا بالدياثة .

وقال : الدنيا لا تساوي نقل أقدامك إليها ، فكيف تعدو خلفها .

وقال : على قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة .

وقال بعض الزهاد : دع الدنيا لأهلها كما تركوا هم الآخرة لأهلها .

وقال الحسن البصري : من نافسك في دينك فنافسه ، ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره .

قال الشاعر في وصف الدنيا :

أحلامُ نومٍ أو كظلٍ زائلٍ إن اللبيبَ بمثلها لا يخدع

وقال آخر :

الدنيا ساعةْ فاجعلها طاعةْ

والنفس طماعةْ عوّدها القناعةْ

فائدة : ١٣

التحذير من فتنة النساء لقوله (أو امرأة ..) وخصها بالذكر لشدة الافتتان بها .

قال ﷺ (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء) متفق عليه .

وقال ﷺ (.. فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء) رواه مسلم .

وقال ﷺ (ما رأيت من ناقصات عقل ودين، أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن) متفق عليه.

ويكفي في فتنتها قوله ﷺ (إِنَّ المرأَةَ تُقبِلُ فِي صُورَةِ شَيطَانٍ، وَتُدبِرُ فِي صُورَةِ شَيطَان).

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعنَاهُ: الْإِشَارَةُ إِلَى الهوَى وَالدُّعَاءِ إِلَى الفِتنَةِ بِهَا، لِمَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي نُفُوسِ الرِّجَالِ مِنَ الميلِ إِلَى النِّسَاءِ وَالِالتِذَاذِ بِنَظَرِهِنَّ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِن، فهي شَبِيهَةٌ بِالشَّيطَانِ فِي دُعَائِهِ إِلَى الشَّرِّ بِوَسوَسَتِهِ وَتَزيِينِهِ لَه.

ومما يدل على خطورة هذه الفتنة أن الله بدأ بها في قوله تعالى (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) .

قال القرطبي: قوله تعالى (مِنَ النساء) بدأ بهنّ لكثرة تشوّف النفوس إليهن؛ لأنهنّ حبائل الشيطان وفتنة الرجال.

وقال ابن كثير : فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد .

قال سعيد بن المسيب : ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قِبَل النساء .

وقال أبو صالح السمان : بلغني أن أكثر ذنوب أهل النار في النساء .

فائدة :

الحديث دليل للقاعدة : الأمور بمقاصدها .

فائدة :

اختيار التمثيل بالهجرة؛ لما لها من عظيم الشأن في ذلك العهد، ولعله تَحدَّث الحديث في إبَّان الهجرة من مكة إلى المدينة والدعوة إليها.

يؤيِّد ذلك ما يروى أن رجلاً هاجر من مكة إلى المدينة لا يريد فضيلة الهجرة، وإنما يريد إن يتزوَّج امرأة تُدعى أم قيس ؛ فإن صحَّ أن تكون القصة سبب هذا الحديث كما قيل، كان التمثيل بالمرأة مقصودًا له ﷺ جَرْيًا على كريم عادته من التعليم والإرشاد من غير أن يُجابِه أحدًا بما يكره حياءً أو كرمًا؛ وإلا فالقصة من قبيل المصادفة ليس غير.

قال الحافظ ابن رجب : وقد اشتهر أن قصة مهاجر أم قيس هي كانت سبب قول النبي ﷺ : من كانت هجرته إلى دنيا يُصيبها أو امرأة يَنكِحها ، وذَكَر ذلك كثيرٌ من المتأخرين في كُتبهم، ولم نرَ لذلك أصلاً يَصِحُّ، والله أعلم .

فائدة :

يجب الحذر من آفات الإخلاص من رياء وسمعة، ومن عجب، ومن طلب الدنيا بعمل الآخرة، فإن من وقعت هذه الآفات في

أصل عمله، حبط عمله كله، وأما ما وقع منها في أثناء عمله حبطت الزيادة التي أدخلها على العمل لغير وجه الله.

فائدة :

أشار الحديث إلى أنه من ملهيات الدنيا وشواغلها اتباع الشهوات، وأُكد على هذا المعنى بالخصوص لخطره.

فائدة :

ينبغي للمعلم أن يضرب لطلابه الأمثلة التي تثبت لهم فهم القاعدة.

فائدة :

بالنية الصالحة تتحول العادات إلى عبادات .

وذلك بأن يعمل المسلم شيئًا من المباحات، وينوي به أن يكون وسيلة لما أُمر به شرعًا، أو ينوي به خيرًا، فإنه يؤجر عليه، ومثال ذلك: الأكل والشرب، إذا نوى التقوّيَ بهما على طاعة الله تعالى أثيب على ذلك، ومثل: النوم، إذا نوى به التقوّيَ على طاعة الله تعالى من قيام الليل وصلاة الفجر وقراءة القرآن وغير ذلك، أثيب عليه .

ولما سأل أبو موسى الأشعري معاذ بن جبل – رضي الله عنهما – عن كيفية قراءته للقرآن، قال معاذ (أنام أول الليل، فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتَب الله لي، فأحتسب نَوْمتي كما أحتسب قَوْمتي) رواه البخاري .

وفي رواية لابن أبي شيبة وغيره (أنام أول الليل وأتقوَّى به على آخره، وإني لأرجو الأجر في رقدتي كما أرجوه في يقظتي) .

وقال التابعي الجليل زُبَيد بن الحارث اليامي رحمه الله: يسرني أن يكون لي في كل شيء نية، حتى في الأكل والنوم .

الحديث الثاني

٢–عن عمر بن الخطاب ﷺ، قَالَ (بَيْنَما نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُول الله ﷺ ذَاتَ يَوم، إذْ طَلَعَ عَلَينا رَجُلٌ شَديدُ بَياضِ الثِّيابِ، شَديدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لا يُرَى عَلَيهِ أثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إلَى النَّبيّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيهِ إلَى رُكْبَتَيهِ، وَوَضعَ كَفَّيهِ عَلَى فَخِذَيهِ، وَقالَ: يَا مُحَمَّدُ، أخْبرني عَنِ الإسلامِ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ : الإسلامُ: أنْ تَشْهدَ أنْ لا إلهَ إلاَّ الله وأنَّ مُحَمَّداً رسولُ الله، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيتَ إن اسْتَطَعْتَ إلَيْهِ سَبيلاً ، قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقهُ! قَالَ: فَأَخْبرِني عَنِ الإيمَانِ. قَالَ أنْ تُؤمِنَ باللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ ، قَالَ: صَدقت. قَالَ: فأَخْبرني عَنِ الإحْسَانِ. قَالَ : أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ ، قَالَ: فَأَخْبِرني عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بأعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ ،. قَالَ: فأخبِرني عَنْ أمَاراتِهَا. قَالَ: أنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وأنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ في البُنْيَانِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيّاً، ثُمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ، أَتَدْري مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللهُ ورسُولُهُ أعْلَمُ. قَالَ: فإنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يعَلِّمُكُمْ أمْرَ دِينكُمْ) رواه مسلم.

==========

(**إذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رجل**) أي : ملك، في صورة رجل .

(**شَديدُ بَياضِ الثِّيابِ، شَديدُ سَوَادِ الشَّعْرِ**) زاد في رواية ابن حبّان: سواد اللحية .

(**لا يُرَى عَلَيهِ أثَرُ السَّفَرِ**) وفي "مستخرج أبي نعيم": (لا نَرَى عليه أثرَ سفر، ولا يعرفه منا أحد) ووقع في حديث أبي هريرة ﷺ عند البخاريّ في "التفسير" (إذ أتاه رجل يمشي) وفي حديث أبي هريرة، وأبي ذر عند النسائيّ (وإنا لجلوس، ورسول الله ﷺ في مجلسه، إذ أقبل رجل، أحسن الناس وجهًا، وأطيب الناس ريحًا، كأن ثيابه لَمْ يمسها دنس، حتى سلّم في طرَف البساط، فقال:

السلام عليكم يا محمد) .

(**وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ**) يعني أنهم تعجّبوا من كيفيّة إتيانه، ووقع في خاطرهم أنه إما ملكٌ، أو جنّيّ؛ لأنه لو كان بشرًا إما أن يكون من المدينة، أو غريبًا، ولم يكن من المدينة؛ لأنهم لَمْ يعرفوه، ولم يكن إتيانه من بعيد؛ لأنه لَمْ يكن عليه أثر السفر، من الغبار وغيره.

فإن قيل : كيف عَرَف عمر ﷺ أنه لَمْ يعرفه أحد منهم.

أجيب : بأنه يحتمل أن يكون استند في ذلك إلى ظنه، أو إلى صريح قول الحاضرين. وهذا الثاني – كما قال الحافظ – أولى، فقد جاء ذلك في رواية عثمان بن غياث، فإن فيها: "فنظر القوم بعضهم إلى بعض، فقالوا: ما نعرف هذا .

(**حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيهِ إِلَى رُكْبَتَيهِ**) إنما جلس هكذا؛ ليتعلّم الحاضرون جلوس السائل عند المسئول؛ لأن الجلوس على المركبة أقرب إلى التواضع والأدب .

(**فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْه**) . **قيل** : معناه أن الرجل الداخل وضع كفيه على فخذي نفسه وجلس على هيئة المتعلم .

وقيل : معناه وضع كفيه على فخذي النبي ﷺ .

وهذا الصحيح لحديث أبي هريرة وأبي ذر عند النسائي (... إذ أقبل رجل أحسن الناس وجهاً ، وأطيب الناس ريحاً، كأن ثيابه لم يمسّها دَنَس، حتى سلم في طرف البساط ، فقال : السلام عليك يا محمد، فرد عليه السلام، قال: أدْنو يا محمد ؟ قال : ادْنُهْ ؟ فما زال يقول : ادنو ؟ مراراً ويقول له : ادن ، حتى وضع يده على ركبتي رسول الله ﷺ) .

واختلف العلماء في الحامل له على ذلك :

والصحيح أن الحامل له على ذلك : الإيغال في التعمية لئلا يعرف ، فإن هذا فعل جفاة الأعراب ، وأما قول من قال : إنه فعل ذلك كحال المؤدب ، فإن ذلك ليس حال المؤدب .

قال في "الفتح": فيه إشارة لما ينبغي للمسئول من التواضع، والصَّفْح عما يبدو من جفاء المسائل، والظاهر أنه أراد بذلك المبالغه في تعمية أمره؛ ليقوي الظن بأنه من جُفَاة الأعراب، ولهذا تخطى الناس، حتى انتهى إلى النبي ﷺ كما تقدم، ولهذا استغرب الصحابة صنيعه، ولأنه ليس من أهل البلد وجاء ماشيًا، ليس عليه أثر سفر.

(**وَقالَ: يَا مُحَمَّدُ**) فإن قيل: كيف بدأ بالسؤال قبل السلام؟

أجيب: بأنه يحتمل أن يكون ذلك مبالغةً في التعمية لأمره، أو ليبين أن ذلك غير واجب، أو سلم فلم ينقله الراوي.

وهذا الثالث هو الصواب، فقد ثبت في رواية حديث أبي هريرة، وأبي ذرّ المتقدّم عند النسائيّ قوله (حتى سلم من طرف البساط، فقال: السلام عليك يا محمد، فرد عليه السلام ...) .

(**أَخْبِرني عَنِ الإسلامِ**) قال القرطبيّ: الإسلام في اللغة: هو الاستسلام، والانقياد، ومنه قوله تعالى (قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) أي انقدنا، وهو في الشرع: الانقياد بالأفعال الظاهرة الشرعيّة، ولذلك قال ﷺ فيما رواه أنس ﷺ عنه: "الإسلام علانية، والإيمان في القلب"، ذكره ابن أبي شيبة في "مصنّفه .

(**فَقَالَ رَسُول الله ﷺ : الإسلامُ: أَنْ تَشْهدَ أَنْ لا إلهَ إلاَّ الله وأنَّ مُحَمَّداً رسولُ الله، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيتَ إن اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبيلاً**) سيأتي الكلام عنها في حديث ابن عمر إن شاء الله .

(**قَالَ: صَدَقْتَ**) أي : قال السائل صدقت .

(**فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقهُ!**) وفي حديث أبي هريرة، وأبي ذرّ عند النسائي (فلما سمعنا قول الرجل: صدقت أنكرناه) وفي رواية مطر الوراق (انظروا إليه كيف يسأله، وانظروا إليه كيف يصدقه) وفي حديث أنس (انظروا وهو يسأله، وهو يصدقه، كأنه أعلم منه) وفي رواية سليمان بن بريدة (قال القوم: ما رأينا رجلًا مثل هذا، كأنه يُعَلِّم رسول الله ﷺ يقول له: صدقت صدقت).

قال القرطبي : إنما عَجِبوا من ذلك؛ لأن ما جاء به النبي ﷺ، لا يُعرَف إلَّا من جهته، وليس هذا السائل ممن عُرف بلقاء النبي ﷺ ولا بالسماع منه، ثم هو يسأل سؤال عارف، محقّق مصدّق؛ فتعجبوا من ذلك، تعجب المستبعد لأن يكون أحد يعرف تلك الأمور المسئول عنها من غير جهة النبيّ ﷺ .

(**قَالَ: فَأَخْبِرنِي عَنِ الإِيمَانِ**) قال في "الفتح": قوله: "قال: الإيمان: أن تؤمن بالله ... " إلخ: دل الجواب أنه عَلِم أنه سأله عن متعلقات الإيمان، لا عن معنى لفظه، وإلا لكان الجواب الإيمان: التصديق .

(**قَالَ أنْ تُؤمِنَ باللهِ**) أي : بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته .

(**وَمَلائِكَتِهِ**) وهو التصديق بوجودهم، وأنهم كما وصفهم الله تعالى (عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) وأنهم سفراء الله بينه وبين رسله، والمتصرّفون كما أذن لهم في خَلْقه.

(**وَكُتُبِهِ**) معنى الإيمان بكتب الله تعالى: التصديق بأنه كلام الله تعالى، وأن ما تضمّنته حقّ وصدق.

(**وَرُسُلِهِ**) ومعنى الإيمان بالرسل: التصديق بأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى، وأن الله تعالى أيّدهم بالمعجزات الدّالّة على صدقهم، وأنهم بلّغوا عن الله تعالى رسالاته، وبيّنوا للمكلّفين ما أمرهم الله تعالى ببيانه، وأنه يجب احترامهم، وألا يُفرَّق بين أحد منهم. قاله القرطبيّ.

(**وَاليَوْمِ الآخِرِ**) أي يوم القيامة، سُمِّي به؛ لأنه آخر أيام الدنيا، أو آخر الأزمنة المحدودة، والمراد الإيمان به، وبما فيه من البعث والحساب، ودخول أهل الجنّة الجنّةَ، وأهل النار النارَ إلى غير ذلك، مما ورد النصّ القاطع به. قاله الطيبيّ .

وقال القرطبيّ: معنى الإيمان باليوم الآخر: هو: التصديق بيوم القيامة، وما اشتمل عليه من الإعادة بعد الموت، والنشر، والحشر، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة والنار، وأنهما دار ثوابه، وجزائه للمحسنين، والمسيئين، إلى غير ذلك، مما صحّ نصّه، وثبت نقله. (القرطبي) .

وفي حديث أبي هريرة ﷺ الآتي: "وتؤمن بالبعث"،

(**وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ**) وهو الإيمان بالقدر أنه تعالى علم مقادير الأشياء، وأحوالها، وأزمانها قبل إيجادها .

(**قَالَ: فَأَخْبِرنِي عَنِ الإِحْسَانِ**) إحسانُ العبادة: الإخلاص فيها، والخشوع وفراغ البال حالَ التلبس بها، ومراقبة المعبود.

(**قَالَ : أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأنَّكَ تَرَاهُ فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ**) قال "الفتح": أشار في الجواب إلى حالتين، أرفعهما أن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه، حتى كأنه يراه بعينه، وهو قوله: "كأنك تراه": أي وهو يراك، والثانية أن يستحضر أن الحق مُطّلِع عليه، يَرَى كل ما يعمل، وفو قوله: "فإنه يراك"، وهاتان الحالتان يثمرهما معرفة الله، وخشيته، وقد عبر في حديث أبي هريرة ﷺ الآتي بقوله: "أن تخشى الله كأنك تراه"، وكذا في حديث أنس ﷺ .

وقال النووي: معناه إنك إنما تراعي الآداب المذكورة، إذا كنت تراه ويراك؛ لكونه يراك، لا لكونك تراه، فهو دائمًا يراك، فأحسن عبادته، وإن لم تره، فتقدير الحديث: فإن لم تكن تراه، فاستمر على إحسان العبادة، فإنه يراك، قال: وهذا القدر من الحديث أصل

عظيم، من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين، وهو عمدة الصديقين، وبغية السالكين، وكنز العارفين، ودأب الصالحين، وهو من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ .

(**قَالَ: فَأَخْبِرنِي عَنِ السَّاعَةِ**) أي : متى تقوم الساعة؟ وقد صرّح به في حديث أبي هريرة ﷺ، واللام للعهد، والمراد يوم القيامة. قاله في الفتح .

(**قَالَ مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بأعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**) أي : لست بأعلم منك بها .

(**قَالَ: فأخبِرنِي عَنْ أمَارَاتِهَا**) أي : علاماتها .

وفي حديث أبي هريرة ﷺ (وسأحدّثك عن أشراطها) وعند البخاري في "التفسير": (ولكن سأحدثك) وفي بعض الروايات: (ولكن لها علامات، تعرف بها) .

ويجمع بين هذه الاختلافات بأنه ﷺ ابتدأ بقوله: "وسأخبرك"، فقال له السائل: "فأخبرني"، ويدل على ذلك روايةٌ عند البخاري بلفظ: "ولكن إن شئت، نبأتك عن أشراطها، قال: أجل"، ونحوه في حديث ابن عباس، وزاد: "فحدثني".

(**قَالَ: أنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا**) سيأتي معناها إن شاء الله .

(**وأنْ تَرَى الحُفَاةَ**) بالضمّ: جمع حاف، وهو الذي لا يلبس في رجله نعلًا أو غيرها .

(**العُرَاةَ**) بالضمّ أيضًا جمع عار: وهو الذي لا يلبس على جسده ثوبًا .

(**العَالَةَ**) بتخفيف اللام: جمع عائل، وهو الفقير .

(**رِعَاءَ الشَّاءِ**) وإنما خصّ رعاء الشاء بالذكر؛ لأنهم أضعف أهل البادية. قاله القرطبيّ .

وفي حديث أبي هريرة ﷺ (إذا رأيت الرِّعَاء البهم) وعند البخاريّ (وإذا تطاول رعاة الإبل البهم) .

(**يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ**) أي : يتفاخرون في طول بيوتهم، ورفعتها .

(**فإنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يعْلِّمُكُمْ أمْرَ دِينكُمْ**) وعند النسائي (ليعلمكم أمر دينكم) أي وقواعد دينكم، وإسناد التعليم لجبريل مجازي، لأنه كان السبب في الجواب.

فائدة : ١

أهمية هذا الحديث .

هذا الحديث يُطلَق عليه أُمُّ السُّنَّة؛ لاشتماله على جميع مراتب الدين، وهو من الأحاديث التي عليها مدار الدين.

قال الحافظ في الفتح: قال القرطبي: هذا الحديث يصلح أن يقال له أم السنة، لما تضمنه من جمل علم السنة .

وقال الطيبي: لهذه النكتة استفتح به البغوي كتابيه "المصابيح" و"شرح السنة" اقتداء بالقرآن في افتتاحه بالفاتحة، لأنها تضمنت علوم القرآن إجمالاً .

وقال القاضي عياض : اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان ابتداء وحالا ومآلا، ومن أعمال الجوارح، ومن إخلاص السرائر، والتحفظ من آفـات الأعمال، حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه.

فائدة : ٢

ينبغي للمسلم أن يحضر مجالسَ العلم، وهو على هيئةٍ وصورةٍ حَسَنةٍ مِن لُبْس أجملِ الثياب، وكذلك إذا ذهب إلى عالمٍ ربَّاني؛ ليَسأَلَه في أمور دينه أن يكون على هيئة حسنة؛ لقوله : شديدُ بَياضِ الثياب، شديدُ سَوادِ الشَّعر .

فائدة : ٣

الحديث دليل على استحباب السؤال في العلم .

قال تعالى (فاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) .

وقد قيل : السؤال نصف العلم .

وقال الزُّهْري : إنما هذا العلم خزائن، ومِفْتاحُها المسألة .

وكان الخليل بن أحمد – رحمه الله – يقول: العلوم أقفال، والسؤالات مفاتيحها .

وقال ابن القيم: وقد جعل الله سبحانه لكل مطلوب مِفْتاحًا يفتح به؛ فجعل مفتاح الصلاة الطهور، كما قال ﷺ: "مفتاح الصلاة الطهور"، ومفتاح الحج الإحرام، ومفتاح البر الصدقة، ومفتاح الجنة التوحيد، ومفتاح العلم حسن السؤال، وحسن الإصغاء .

وكان يقال: مَن رقَّ وجهه عن السؤال رقَّ علمه عند الرجال، ومَن ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حقه.

فائدة : ٢

الحديث دليل على أنه ينبغي لمن حضر مجلس علم، ورأى أن الحاضرين بحاجة إلى معرفة مسألة ما، ولم يسأل عنها أحد، أن يسأل هو عنها . وإن كان هو يعلمها . لينتفع أهل المجلس بالجواب .

فقد كان غرض جبريلَ عليه السلام من أسئلته هذه أن يتعلم المسلمون ، وهذا ما بينه النبيُّ ﷺ بقوله (فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أتاكم يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُم) وفي رواية أبي هريرة عند البخاري ومسلم (هَذَا جِبْرِيلُ أَرَادَ أَنْ تَعَلَّمُوا إِذْ لَمْ تَسْأَلُوا) .

فائدة : ٣

استحباب جلوس العالم بمكان يختص به ويكون مرتفعاً إذا احتاج لذلك لضرورة تعليم ونحوه.

ففي حديث أبي هريرة قال (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا يَوْماً لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ ...) .

وقد جاء في بعض روايات هذا الحديث في أوله (كان رسول الله ﷺ يجلس بين أصحابه فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو ، فطلبنا إليه أن نجعل له مجلساً يعرفه الغريب إذا أتاه ، قال: فبنينا له دكاناً من طين كان يجلس عليه).

فائدة : ٤

الحديث دليل على أنه ينبغي للسائل حسن الأدب بين يدي معلمه ، وأن يرفق في سؤاله . قاله النووي .

ويشهد لهذا ما في رواية عطاء بن السائب عن يحي بن يعمر (فقال أدنو يا رسول الله قال نعم فدنا ثم قام فتعجبنا لتوقيره رسول الله ثم قال أدنو يا رسول الله قال نعم فدنا حتى وضع فخذه على فخذ رسول الله ﷺ) .

وفي رواية علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن ابن عمر عند أحمد (ما رأينا رجلاً أشد توقيراً لرسول الله ﷺ من هذا) .

قال الشافعي : لا يطلب هذا العلم أحد بالملك وعزة النفس فيفلح ، لكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلم وتواضع النفس أفلح .

وقال عبد الله بن المعتز : المتواضع في طلب العلم أكثرهم علماً كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء .

فائدة : ٥

الحديث دليل على أن الملَك يجوز أن يتمثل لغير النبي ﷺ فيراه ، ويتكلم بحضرته وهو يسمع ، وقد ثبت عن عمران بن حصين أنه

كان يسمع كلام الملائكة .

فائدة : ٦

الحديث دليل لجمهور أهل السنة على أن الإسلام غير الإيمان (وهذا عند الاجتماع) .

فالإسلام هو الأعمال الظاهرة ، والإيمان هو الأعمال الباطنة .

أ-لقوله تعالى (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) .

فهذه الآية أثبت لهم الإسلام ونفت عنهم الإيمان مما يدل على أن مرتبة الإيمان أعلى .

فالمراد بقوله (أسلمنا) أي : دخلنا في الإسلام على القول الصحيح في معنى الآية ، والدليل على أن المراد به الإسلام وليس الاستسلام قوله (وإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً) فدل على أنهم إذا أطاعوا الله ورسوله مع هذا الإسلام ، آجرهم الله على الطاعة .

قال ابن كثير : استفيد من هذه الآية أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة .

ب-ولحديث الباب ، فإنه سأل النبي ﷺ عن الإسلام وعرفه النبي ﷺ بأركان الإسلام، ثم سأله عن الإيمان وعرفه بأنه أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ... ، وهذا يدل على الفرق بينهما.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: إذا قرن الإسلام بالإيمان فإن الإسلام يكون الأعمال الظاهرة من نطق اللسان وعمل الجوارح، والإيمان الأعمال الباطنة من العقيدة وأعمال القلوب، ويدل لهذا التفريق قوله تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم)، ويدل لذلك أيضاً حديث عمر بن الخطاب ...

ولحديث الباب ، فهو من أهم الأدلة على ذلك .

فائدة : ٧

وجوب الإيمان بالله .

والإيمان بالله يتضمن عدة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بوجود الله دون شك ولا ريب.

وقد دل على وجوده سبحانه الفطرة والعقل والشرع والحس.

أما الفطرة: فإن كل مخلوق قد فطر على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم، وقد قال ﷺ (ما من مولود يولد إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصّرانه أو يمجسانه) متفق عليه.

وأما العقل: فلأن هذه الموجودات والمخلوقات سابقها ولاحقها لابد لها من خالق أوجدها، إذ لا يمكن أن توجد بنفسها، لأن الشيء لا يخلق نفسه، ولا يمكن أن توجد صدفة، لأن كل حادث لابد له من محدِث، وكل موجود لابد له من موجِد. (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ).

وأما الحس: فإننا نسمع ونشاهد من إجابة الداعين وغوث المكروبين ما يدل دلالة قاطعة على وجوده سبحانه وتعالى.

قال تعالى (وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ).

وعن أنس (أن أعرابياً دخل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب فقال: يا رسول الله! هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا، فرفع يديه ودعا

فثار السحاب ونزل المطر ...) متفق عليه.

وأما دلالة الشرع: فلأن الكتب السماوية كلها ناطقة بذلك.

الأمر الثاني: الإيمان بربوبية الله تعالى.

أي: بأنه الرب لا شريك له ولا معين، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا مدبر إلا الله، فهو خالق كل شيء ومالكه ومدبره.

قال تعالى (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ).

وقال تعالى (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ).

وقال تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

الأمر الثالث: الإيمان بألوهيته.

أي: بأنه الإله الحق لا شريك له، فكل من اتخذ إلهاً مع الله فألوهيته باطلة.

قال تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ).

الأمر الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته.

أي: إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو وصفه به رسوله ﷺ من الأسماء والصفات على الوجه اللائق به من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.

قال تعالى (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

فائدة : ٨

الحديث دليل على وجوب الإيمان بالملائكة .

والملائكة: عالم غيبي خلقوا من نور، جعلهم الله طائعين له متذللين له.

والإيمان بهم يتضمن عدة أمور:

أولاً: الإيمان بوجودهم، فمن أنكر وجودهم فهو كافر لأنه مكذب لله ولرسوله.

ثانياً: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم كجبريل وإسرافيل ومن لم نعلم اسمه نؤمن بهم إجمالاً.

ثالثاً: الإيمان بما علمنا من صفاتهم، كصفة جبريل، فقد أخبر النبي ﷺ أنه رآه على صفته التي خلقه الله عليها وله ستمائة جناح وقد سد الأفق.

رابعاً: الإيمان بما علمنا من أعمالهم التي يقومون بها بأمر الله تعالى كتسبيحه والتعبد له ليلاً ونهاراً بدون ملل ولا فتور.

قال ابنُ حَجَر: الإيمانُ بالملائِكةِ هو التصديقُ بوُجودِهم، وأنهم كما وصفهم اللهُ تعالى عبادٌ مُكرَمون، وقَدَّم الملائِكةَ على الكُتُب والرُّسُل نظرًا للترتيبِ الواقِعِ؛ لأنَّه سُبحانَه وتعالى أرسل المَلَكَ بالكِتابِ إلى الرَّسول .

وسيأتي إن شاء الله زيادة شرح عن الملائكة عند الحديث : ٤ .

فائدة : ٩

الحديث دليل على وجوب الإيمان بالكتب المنزلة .

والإيمان بالكتب: هو التصديق الجازم بأن لله كتباً أنزلها على أنبيائه ورسله، وهي من كلامه حقيقة، وأنها نور وهدى، وأن ما تضمنته حق وصدق، ولا يعلم عددها إلا الله، وأنه يجب الإيمان بها مجملة إلا ما سمي منها وهي: التوراة أنزلت على موسى، والإنجيل أنزلت

على عيسى، والزبور أنزلت على داود، والقرآن أنزل على محمد ﷺ .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيداً).

قال ابن حجر : الإيمانُ بكُتُبِ الله التصديقُ بأنها كلامُ اللهِ، وأنَّ ما تضمَّنَته حَقٌّ .

وقال ابنُ أبي العِزّ : أمَّا الإيمانُ بالكُتُبِ المُنَزَّلةِ على المرسَلين، فنؤمِنُ بما سمَّى اللهُ تعالى منها في كِتابِه، من التَّوراةِ والإنجيلِ والزَّبورِ، ونؤمِنُ بأنَّ للهِ تعالى سوى ذلك كتُبًا أنزلها على أنبيائِه لا يعرِفُ أسماءَها وعَدَدَها إلَّا اللهُ تعالى .

وقال حافظٌ الحَكَمي : معنى الإيمانِ بالكُتُبِ التصديقُ الجازمُ بأنَّ كُلَّها مُنَزَّلٌ من عند اللهِ عَزَّ وجَلَّ على رُسُلِه إلى عبادِه بالحَقِّ المبِينِ والهُدى المستَبِينِ، وأنَّها كلامُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لا كلامُ غَيرِه، وأنَّ اللهَ تعالى تكلَّم بها حقيقةً كما شاء، وعلى الوَجهِ الذي أراد؛ فمنها المسموعُ منه من وَراءِ حِجابٍ بدونِ واسطةٍ، ومنها ما يُسمِعُه الرَّسولَ الملَكيَّ، ويأمُرُه بتبليغِه منه إلى الرَّسولِ البَشَريِّ... ومنها ما خَطَّه اللهُ بيَدِه عَزَّ وجَل .

فائدة : ١٠

الحديث دليل على وجوب الإيمان بالرسل .

والإيمان بالرسل يتضمن عدة أمور:

أولاً: أن رسالتهم حق من عند الله تعالى، فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر برسالة الجميع.

كما قال تعالى (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) فجعلهم الله مكذبين لجميع الرسل، مع أنه لم يكن رسول غيره حين كذبوه.

ثانياً: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه، وقد ذكر الله في كتابه خمسة وعشرين نبياً ورسولاً، وأما ما لم نعلم اسمه فنؤمن به إجمالاً، فالله أرسل رسلاً لم يقصصهم علينا ولا يعلم عددهم إلا الله قال تعالى (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً).

ثالثاً: الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله به، وأنهم بينوا بياناً لا يسع أحداً ممن أرسلوا إليه جهله قال تعالى (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ).

قال ابنُ رَجَبٍ: الإيمانُ بالرُّسُلِ يلزمُ منه الإيمانُ بجَميعِ ما أخبروا به من الملائكةِ، والأنبياءِ، والكِتابِ، والبَعثِ، والقَدَرِ، وغيرِ ذلك من تفاصيلِ ما أخبروا به من صِفاتِ اللهِ وصِفاتِ اليومِ الآخِرِ، كالميزانِ والصِّراطِ، والجَنَّةِ والنَّارِ .

وقال ابنُ أبي العِزّ: أمَّا الأنبياءُ والمرسَلون، فعلينا الإيمانُ بمن سَمَّى اللهُ تعالى في كِتابِه مِن رُسُلِه، والإيمانُ بأنَّ اللهَ تعالى أرسل رُسُلًا سِواهم وأنبياءَ، لا يَعلَمُ أسماءَهم وعَدَدَهم إلَّا اللهُ تعالى الذي أرسلهم، فعلينا الإيمانُ بهم جملةً؛ لأنَّه لم يأتِ في عَدَدِهم نَصٌّ .

وقال ابنُ حَجَرٍ: الإيمانُ بالرُّسُلِ: التصديقُ بأنَّهم صادقون فيما أخبروا به عن اللهِ، ودَلَّ الإجمالُ في الملائِكةِ والكُتُبِ والرُّسُلِ على الاكتفاءِ بذلك في الإيمانِ بهم من غيرِ تفصيلٍ، إلَّا من ثبت تسميتُه، فيجبُ الإيمانُ به على التعيينِ .

وقال حافِظٌ الحَكَميُّ مُبَيِّنًا معنى الإيمانِ بالرُّسُلِ: هو التصديقُ الجازمُ بأنَّ اللهَ تعالى بعث في كُلِّ أُمَّةٍ رَسولًا منهم يدعوهم إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه، والكُفرِ بما يُعبَدُ مِن دُونِه، وأنَّ جميعَهم صادِقون مُصَدَّقون بارُّون راشِدون كِرامٌ بَرَرةٌ أتقِياءُ أُمَناءُ هُداةٌ مُهتَدونَ، وبالبراهينِ الظَّاهِرةِ والآياتِ الباهِرةِ من رَبِّهم مُؤَيَّدون، وأنَّهم بلَّغوا جميعَ ما أرسلهم اللهُ به، لم يَكتُموا ولم يُغَيِّروا، ولم يزيدوا فيه من عند أنفُسِهم

حَرفًا ولم يَنقُصوه .

فائدة : ١١

الحديث دليل على وجوب الإيمان باليوم الآخر وهو يوم القيامة .

وسمي اليوم الآخر بهذا الاسم، لأنه بعد انقضاء هذه الدنيا بأيامها ولياليها، فآخر ليلة منها صبيحتها ذلك اليوم الطويل ولا ليل بعده.

والآخرة في اصطلاح القرآن هي الحياة الآخرة.

الإيمانُ باليَومِ الآخِرِ يَتَضَمَّنُ ثَلاثةَ أمورٍ:

الأوَّلُ: الإيمانُ بالبَعثِ: وهو إحياءُ الموتَى .

الثَّاني: الإيمانُ بالحِساب والجَزاءِ: يُحاسَبُ العَبدُ على عَمَلِه، ويُجازَى عليه...

الثَّالِثُ: الإيمانُ بالجَنَّةِ والنَّارِ، وأنَّهما المآلُ الأبَديُّ لِلخَلقِ... ويَلتَحِقُ بالإيمانِ باليَومِ الآخِرِ: الإيمانُ بكُلِّ ما يَكونُ بَعدَ الموتِ .

قال القرطبي : الإيمانُ باليَومِ الآخِرِ: هو التَّصديقُ بيَومِ القيامةِ، وما اشتَمَلَ عليه مِنَ الإعادةِ بَعدَ الموتِ، والنَّشْرِ، والحَشْرِ، والحِسابِ والميزانِ والصِّراطِ، والجَنَّةِ والنَّارِ، وأنَّهما دارَا ثَوابِه وجَزائِه لِلمُحْسِنِينَ والمسيئِينَ، إلَى غَيرِ ذلك مِمَّا صَحَّ نَصُّه، وثَبَتَ نَقلُه .

وقال ابنُ الملَقِّن : (اليومُ الآخِرُ) هو يومُ القيامةِ، وما اشْتَمَلَ عليه مِنَ البَعثِ والجزاءِ والحِسابِ، والميزانِ والصِّراطِ، والجنَّةِ والنَّارِ

وقال السَّعديّ : كُلُّ ما جاءَ في الكِتاب والسُّنَّةِ مِمَّا يَكونُ بَعدَ الموتِ فإنَّه داخِلٌ في الإيمانِ باليَومِ الآخِرِ؛ كأحوالِ القَبرِ والبَرزَخِ ونَعيمِه وعَذابِه، وأحوالِ يَومِ القيامةِ وما فيها مِنَ الحِساب والثَّوابِ والعِقابِ والصُّحُفِ والميزانِ والشَّفَاعةِ، وأحوالِ الجَنَّةِ والنَّارِ وصَفاتِهما وصَفاتِ أهلِهما، وما أعَدَّ اللَّهُ لِأهلِها إجمالًا وتَفصيلًا، كُلُّ ذلك مِنَ الإيمانِ باليَومِ الآخِرِ .

وقال حافِظٌ الحَكَميُّ في مَعنَى الإيمانِ باليَومِ الآخِرِ: مَعناه التَّصديقُ الجازِمُ بإتيانِه لا مَحالةَ، والعَمَلُ بموجِبِ ذلك. ويَدخُلُ في ذلك الإيمانُ بأشراطِ السَّاعةِ وأماراتِها الَّتي تَكونُ قَبلَها لا مَحالةَ. وبالموتِ وما بَعدَه من فتنةِ القَبرِ وعَذابِه ونَعيمِه، وبالنَّفخِ في الصُّورِ وخُروجِ الخَلائِقِ مِنَ القُبورِ وما في مَوقِفِ القيامةِ مِنَ الأهوالِ والأفزاعِ وتَفاصيلِ المحْشَرِ: نَشْرُ الصُّحُفِ، ووَضْعُ الموازينِ، وبالصِّراطِ والحَوضِ، والشَّفَاعةِ وغَيرِها، وبالجَنَّةِ ونَعيمِها الَّذي أعلاه النَّظَرُ إلَى وَجهِ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ، وبالنَّارِ وعَذابِها الَّذي أشَدُّه حَجْبُهم عَن رَبِّهم عزَّ وجَلَّ.

تنبيه :

وللإيمان باليوم الآخر ثمرات جليلة:

منها: الرغبة في فعل الطاعات والحرص عليها رجاء لثواب ذلك اليوم.

ومنها: الرهبة من فعل المعصية والرضى بها خوفاً من عقاب ذلك اليوم.

ومنها: تسلية المؤمن عما يفوته من الدنيا بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها.

قال السَّفارينيّ : اعلَمْ أنَّه يَجِبُ الجَزمُ شَرعًا أنَّ اللَّهَ تَعالَى يَبعَثُ جَميعَ العِبادِ ويُعيدُهم بَعدَ إيجادِهم بجَميعِ أجزائِهمُ الأصليَّةِ، وهيَ الَّتي من شأنِها البَقاءُ من أوَّلِ العُمرِ إلَى آخِرِه، ويَسوقُهم إلَى مَحْشَرِهم لِفصلِ القَضاءِ؛ فإنَّ هَذا حَقٌّ ثابتٌ بالكِتاب والسُّنَّةِ وإجماعِ سَلَفِ الأمَّةِ، مَعَ كَونِه مِنَ الممكِناتِ الَّتي أخبَرَ بها الشَّارِعُ .

وقال ابنُ عُثَيمين : الكِتابُ والسُّنَّةُ تَدُلُّ على ثُبوتِ الآخِرةِ، ووُجوبِ الإيمانِ باليَومِ الآخِرِ، وأنَّ لِلعِبادِ حَياةً أخرَى سِوى هَذِه الحَياةِ

الدُّنيا، والكُتُبُ السَّماويَّةُ الأخرَى تُقَرِّرُ ذلك وتُؤَكِّدُه .

فائدة : ١٢

الحديث دليل على وجوب الإيمان بالقدر .

ومن الأدلة على وجوبه وأنه من أركان الإيمان :

قوله تعالى (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) .

وقوله تعالى (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) .

وَقوله تعالى (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا) .

وَقَالَ تَعَالَى: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً) .

فائدة : ١٣

في قوله ﷺ (وأن تؤمن بالقدر خيرِه وشره) دليل على أن كل الموجودات من خير وشر من الله .

فإن قيل : ما الجواب عن حديث علي –في صحيح مسلم– عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ قَالَ :وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ... وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاَقِ لاَ يَهْدِى لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّى سَيِّئَهَا لاَ يَصْرِفُ عَنِّى سَيِّئَهَا إِلاَّ أَنْتَ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ **وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ** ...) .

الجواب :

قيل: أن الشر لا يتقرب به إليك.

وإلى هذا ذهب الخليل بن أحمد، والنضر بن شميل، ويحيي بن معين، والطحاوي.

وقيل: إن الشر لا يضاف إليك على انفراده، فلا يقال: يا خالق الشر، يا مقدر الشر، ويا خالق الخنازير.

وإلى هذا ذهب أبو عثمان الصابوني.

وقيل: أن الشر لا يصعد إليك.

وقيل: أن المعنى أن الله لا يخلق شراً محضاً، وأن الشر الذي يخلقه تعالى ليس شراً بالنسبة إليه، لأنه صادر عن حكمة بالغة، فقضاء الله وقدره كله خير لا شر فيه بوجه من الوجوه، وإنما يكون الشر في المقضي الذي هو مفعوله ومخلوقه.

وإلى هذا القول ذهب ابن تيمية، وابن القيم.

قال ابن تيمية: وَلِهَذَا كان النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي دُعَاءِ الِاسْتِفْتَاحِ (وَالْخَيْرُ بِيَدَيْك. وَالشَّرُّ لَيْسَ إلَيْك) فَإِنَّهُ لَا يَخْلُق شَرًّا مَحْضًا. بَلْ كُلُّ مَا يَخْلُقُهُ: فَفِيهِ حِكْمَةٌ، هُوَ بِاعْتِبَارِهَا خَيْرٌ. وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ فِيهِ شَرٌّ لِبَعْضِ النَّاسِ. وَهُوَ شَرٌّ جُزْئِيٌّ إضَافِيٌّ. فَأَمَّا شَرٌّ كُلِّيٌّ، أَوْ شَرٌّ مُطْلَقٌ: فَالرَّبُّ مُنَزَّهٌ عَنْهُ. وَهَذَا هُوَ الشَّرُّ الَّذِي لَيْسَ إلَيْهِ. وَأَمَّا الشَّرُّ الْجُزْئِيُّ الْإِضَافِيُّ: فَهُوَ خَيْرٌ بِاعْتِبَارِ حِكْمَتِهِ. وَلِهَذَا لَا يُضَافُ الشَّرُّ إلَيْهِ مُفْرَدًا قَطُّ. بَلْ إمَّا أَنْ يَدْخُلَ فِي عُمُومِ الْمَخْلُوقَاتِ، كَقَوْلِهِ (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ). وَإِمَّا أَنْ يُضَافَ إلَى السَّبَبِ كَقَوْلِهِ (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ). وَإِمَّا أَنْ يُحْذَفَ فَاعِلُهُ، كَقَوْلِ الْجِنِّ (وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا).

وقال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله : ليس في القدر شر ، وإنما الشر في المقدور ، يعني ليس فعل الله وتقديره شراً ، الشر في

مفعولات الله لا في فعله ، والله لم يقدر هذا الشر إلا لخير .

كما قال تعالى (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس) هذا بيان سبب الفساد .

وأما الحكمة فقال (ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) إذاً هذه مصائب مآلها الخير .

فائدة : ١٤

الحديث دليل على وجوب مراقبة الله، وأن ذلك من أسباب إحسان العمل .

لقوله (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) .

فالإحسان (ركن واحد)، أي: شيء واحد، ليس فيه تعدد .

والإحسان على مرتبتين، واحدة أعلى من الأخرى:

الأولى: مرتبة المشاهدة أو المعاينة: (أن تعبد الله كأنَّك تراه) .

بأن يبلغ يقين العبد وإيمانه بالله؛ كأنه يُشاهد الله جل جلاله عيانًا؛ لكمال اليقين وكمال الإخلاص، فيعبد ربه عبادة المشاهد للمشهود، بحيث لو كُشفت الحجب لم يزدد عما هو عليه .

ومن بلغ هذه المرتبة فقد بلغ غاية الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه، والله جل وعلا لا يُرى في الدنيا، وإنما يُرى في الآخرة، ولكن يراه بقلبه؛ حتى كأنه يراه بعينيه، ولذا يُجازى أهل الإحسان بالآخرة بأن يروه سبحانه وتعالى، فلمَّا عبدوه وكأنهم يرونه في الدنيا، جازاهم بأن يروه بأبصارهم في دار النعيم، قال تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَة) والزيادة هي: النظر لوجه الله جل وعلا، فلما أحسنوا في الدنيا أعطاهم الله الحسنى، وهي الجنة، وزادهم رؤية الله عز وجل.

الثانية: مرتبة المراقبة: (فإنْ لم تكن تراه، فإنه يراك) .

يعني: إذا لم يتحقق شهوده بقلبه، فليعبده عبادة من يعلم أنه مطلع عليه، فالعبد لا يرى ربه، ولكن الله يراه، فينبغي للعبد استحضار مراقبة الله جل وعلا له واطلاعه عليه، فيعبد الله جل وعلا على مقام الإحساس بمراقبة الله للعبد بأن يعلم أن الله يراه، ويعلم حاله، وما تخفيه نفسه، واطلاع الله جل وعلا ورؤيته وعلمه لا يقتصر على حال الإنسان الظاهرة، بل يشمل الظاهر والباطن، فلا يليق بالعبد أن يعصيه، وأن يخالف أمره، وهو يراه ويطلع عليه، وهذا إحسان في العمل على سبيل المراقبة والخوف والرجاء.

فالإحسان : فهو إتقان الباطن والظاهر بعبادة الله على وجه المشاهدة أو المراقبة .

قال ابن قدامة : أراد بذلك ـ أي الإحسان ـ استحضار عظمة الله، ومراقبته في حال العبادة .

وقال ابن الأثير : أراد بالإحسان الإشارة إلى المراقبة، وحسن الطاعة .

وقال النووي في شرحه للحديث : فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة، ومراقبة العبد ربه ـ تبارك وتعالى ـ في إتمام الخشوع والخضوع .

وقال ابن حجر: وإحسان العبادة الإخلاص فيها والخشوع، وفراغ البال حال التلبّس بها، ومراقبة المعبود .

تنبيه :

قال الشنقيطي : فسر النبي ﷺ الإحسان بقوله لما سأله جبريل ما الإحسان ؟ (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) رواه مسلم .

وسؤال جبريل هذا ليعلم أصحاب النبي ﷺ معنى الإحسان، وأن إحسان العمل إنما يكون لمن راقب الله وعلم يقينياً أن الله مطلع عليه.

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق ، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل .
كما قال تعالى في أول سورة هود (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) ولم يقل أيكم أكثر عملاً .
وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .
وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً). (أضواء البيان).

فائدة : ١٥

الحديث دليل على وجوب مراقبة الله، وأن ذلك من أسباب االإحسان ، ولمراقبة الله فضائل عظيمة :

أولاً : فضل مراقبة الله في السر توجب للعبد الإخلاص والخلاص من الكبائر .

كما ورد في الحديث (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله) متفق عليه.

ثانياً : النصح في العبادة .

كما قال رسول الله ﷺ (إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصق قِبَل وجهه فإن الله قِبَل وجهه إذا صلى) متفق عليه .

ثالثاً : تورث القلب خشية وخشوعاً وبكاء .

كما في الحديث (ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) .

رابعاً : ومن قدر على معصية الله في سره ثم راقب الله فتركها خوفاً من الله له ثواب عظيم وينفرج همه وينفس كربه .

كما في قصة صاحب الغار الذي خلا بابنة عمه وتمكن منها ثم قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فقام وتركها وترك المال الذي أرادته خوفاً من الله تعالى فانفرج الغار لعمله.

خامساً : من راقب الله في السر حسن عمله وعظم يقينه ، ووجد حلاوة الإيمان ، واطمأن قلبه ، وقذف الله نوراً في قلبه وضياء في وجهه ، ووجد سعة في رزقه وبركة في أهله وألفة ومحبة فيما بينه وبين الخلق وانعكس ذلك على حياته بالتوفيق والرضا والسعادة.

سادساً : عبادة السر من أجل الطاعات ، لأنها مبنية على حسن المراقبة لله والإخلاص المحض واليقين التام وعدم التفات القلب للمخلوقين وثوابهم .

ولذلك أثنى الله عز وجل على صدقة السر فقال: (إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِير) .

وجاء في السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلّه: (رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه).

وكان من دعاء النبي ﷺ (أسألك خشيتك في الغيب والشهادة) .

أن العبد يخشى الله سراً وعلانية ، ظاهراً وباطناً ، فإن أكثر الناس قد يخشى الله في العلانية وفي الشهادة، ولكن الشأن خشية الله في الغيب إذا غاب عن أعين الناس فقد مدح الله من خافه بالغيب .

سابعاً : أنها من أفضل الطاعات وأعلاها .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى (وَأَحْسِنُواْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين) ومضمون الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات، ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء... في عطف بالأمر بالإحسان وهو أعلى مقامات الطاعة .

ثامناً : أن بها يكسب العبد رضا الله سبحانه وتعالى عنه.

تاسعاً : أنها من أعظم البواعث على المسارعة إلى الطاعات.

عاشراً : أن بها يحصل العبد على معيّة الله وتأييده.

الحادي عشر : أنها تعينه على ترك المعاصي والمنكرات.

قال ابن الجوزي : فقلوب الجهال تستشعر البُعْد؛ ولذلك تقع منهم المعاصي، إذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر الناظر لكفوا الأكُفَّ عن الخطايا، والمتيقظون علموا قربه فحضرتهم المراقبة، وكفتهم عن الانبساط .

وقال ابن القيم : فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه من المعاصي، فإن من عبد الله كأنه يراه لم يكن ذلك إلا لاستيلاء ذِكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنه يشاهده، وذلك يحول بينه وبين إرادة المعصية، فضلاً عن مواقعتها .

وقال أيضاً: فمن راقب الله في سره حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته .

الثاني عشر : أنها من خصال الإيمان وثمراته.

فائدة : ١٦

الحديث دليل على أن حسن السؤال من أسباب تحصيل العلم .

قيل لابن عباس : بما بلغت العلم ؟ قال : بلسان سؤول ، وقلب عقول .

وقال الزهري : العلم خزانة مفتاحها المسألة .

وسئل الأصمعي : بما نلت ما نلت ؟ قال : بكثرة سؤالي ، وتلقفي الحكمة الشرود .

وقال ميمون بن مهران: حسن المسألة نصف الفقه.

وقال الإمام النووي رحمه الله: استحباب تلطُّف السائل في عبارته وسؤاله للعالم.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: قال ابن المنير: في قوله: (يُعلِّمكم دينَكم) دلالة على أن السؤال الحسن يُسمَّى علمًا وتعليمًا؛ لأن جبريل لم يصدر منه سوى السؤال، ومع ذلك سمَّاه علمًا، وقد اشتهر قولهم: حُسْن السؤال نصفُ العلم.

قال ابن قيم الجوزية : وللعلم ست مراتب؛ أولها: حسن السؤال، الثانية: حسن الإنصات، الثالثة: حسن الفهم، الرابعة: الحفظ، الخامسة: التعليم، السادسة وهي ثمرته: وهي العمل به ومراعاة حدوده .

فائدة : ١٧

الحديث دليل على مشروعية الرحلة في طلب الحديث .

ورحل جابر بن عبد الله شهراً كاملاً في مسألة .

وهذا عقبة بن الحارث سافر من مكة إلى المدينة ليلقى رسول الله ﷺ يسأله عن مسألة رضاع وقعت له .

وكان سعيد بن المسيب يقول : إن كنت لأسهر الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد .

فائدة : ١٨

الحديث دليل على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب .

فائدة : ١٩

الحديث دليل على أنه ينبغي لمن سئل عما لا يعلم أن يقول : لا أعلم .

وقد سئل ﷺ عن أحب البقاع إلى الله ؟ فقال : لا أدري .

وقد قالت الملائكة (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) .

وقال ﷺ كما في حديث الباب : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل .

وقال ابن مسعود : من كان عنده علم فليقل ، ومن لم يكن عنده علم فليقل : الله أعلم .

وسئل الشعبي عن شيء فقال : لا أدري ، فقيل له : ألا تستحيي من قولك لا أدري وأنت فقيه العراقين ؟ فقال : لكن الملائكة لم تستح حين قالت سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا .

وقال البراء : لقد رأيتُ ثلاثمائة من أهل بدر ما منهم أحد إلا وهو يحبُّ أن يكفيَه صاحبُه الفتوى .

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى : أدركتُ عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله يسأل أحدهم عن المسألة فيردها إلى هذا، وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول .

وقال ابن وهب : وكنت أسمعه – أي مالكاً – كثيراً ما يقول : لا أدري ، ولو كتبنا عن مالك لا أدري لملأنا الألواح .

وقال ابن عباس : إذا ترك العالم لا أدري أصيبت مقاتله .

وقال الشعبي : لا أدري نصف العلم .

وعن عقبة بن مسلم قال : صحبت ابن عمر أربعةً وثلاثين شهراً فكان كثيراً ما يُسأل فيقول : لا أدري ، ثم يلتفت فيقول : أتدري ما يريدون هؤلاء ؟ يريدون أن يجعلوا ظهورنا جسراً إلى جهنم .

قال ابن عيينة : أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً .

وقال مالك : ما أفتيت حتى شهد لي سبعون من أهل المدينة .

قال ابن القيم : وقد حرم الله القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء وجعله من أعظم المحرمات بل جعله في المرتبة العليا، قال الله تعالى (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) .

وقيل : ينبغي للعالم أن يورث أصحابه لا أدري لكثرة ما يقولها .

قال ابن جماعة : واعلم أن قول (لا أدري) لا يضع من قدر العالم كما يظنه بعض الجهلة ، بل هي رفعة له ، لأنه دليل على عظم محله وعلى ورعه وعلى تقواه وعلى طهارة قلبه ، إنما يأنف من قول (لا أدري) من ضعفت ديانته وقلت معرفته .

وقد أدب الله العلماء بقصة موسى مع الخضر حيث لم يرد موسى العلم إلى الله تعالى لما سئل : هل أحد في الأرض أعلم منك ؟

فائدة : ٢٠

الحديث دليل على إجابة السائل بأكثر مما سأل .

فإن النبي ﷺ لما أجاب السائل عن الساعة ؟ بجواب جامع ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، لم يكتف بذلك وإنما زاده أن بين له بعض أماراتها ، فقال : وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتْ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ ، فِي خَمْسٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ "، ثُمَّ تَلا النَّبِيُّ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَة) .

فائدة : ٢١

الحديث دليل على أنه لا يدري أحد متى الساعة ، وقد استأثر الله بعلمها ، فلم يطلع على ذلك ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً.

قال تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا

تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا . إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا) .

قال ابن كثير : أي ليس علمها إليك، ولا إلى أحد من الخلق، بل مردها ومرجعها إلى الله، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين .

لكن هي قريبة : قال تعالى (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) .

فائدة : ٢٢

أن للساعة علامات تدل على قربها .

وعلامات الساعة تنقسم إلى قسمين :

أشراط صغرى .

وهي التي تتقدم الساعة بأزمان متطاولة ، وتكون من نوع المعتاد ، كقبض العلم ، وظهور الجهل ، وشرب الخمر ، والتطاول في البنيان .

أشراط كبرى .

وهي الأمور العظام التي تظهر قرب قيام الساعة ، وتكون غير معتادة الوقوع ، كظهور الدجال ، ونزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها .

فائدة : ٢٣

من علامات الساعة أن تلد الأمة ربتها ، وقد اختلف في معناها ؟

قال الخَطابيُّ: قَولُه: (إذا ولدَتِ الأمَةُ رَبَّتَها) مَعناه اتِّساعُ الإسلامِ واستيلاءُ أهلِه على بلادِ الكُفرِ، وسَبيُ ذَراريِّهم، فإذا مَلَكَ الرَّجُلُ الجاريَةُ مِنهم فاستَولَدَها كان الوَلَدُ مِنها بمَنزِلةِ رَبِّها؛ لأنَّه وَلَدُ سَيِّدِها .

قال النووي : وفي الرِّوَايَة الْأُخْرَى (رَبَّهَا) عَلَى التَّذْكِير ، وَفِي الْأُخْرَى : بَعْلَهَا وَقَالَ يَعْنِي السَّرَارِيّ . وَمَعْنَى رَبَّهَا وَرَبَّتَهَا . سَيِّدهَا وَمَالِكهَا وَسَيِّدَتهَا وَمَالِكَتهَا قَالَ الْأَكْثَرُونَ مِنْ الْعُلَمَاء هُوَ إِخْبَار عَنْ كَثْرَة السَّرَارِيّ وَأَوْلَادهنَّ؛ فَإِنَّ وَلَدهَا مِنْ سَيِّدهَا بِمَنْزِلَةِ سَيِّدهَا؛ لِأَنَّ مَال الْإِنْسَان صَائِر إِلَى وَلَده ، وَقَدْ يَتَصَرَّف فِيهِ فِي الْحَال تَصَرُّفَ الْمَالِكِينَ ، إِمَّا بِتَصْرِيحِ أَبِيهِ لَهُ بِالْإِذْنِ ، وَإِمَّا بِمَا يَعْلَمهُ بِقَرِينَةِ الْحَال أَوْ عُرْفِ الِاسْتِعْمَالِ . (نووي) .

وقال ابنُ رَجَبٍ: الْمُرادُ بِرَبَّتِها سَيِّدَتُها ومالِكَتُها، وفي حَديثِ أبي هُرَيرةَ (رَبَّها) ، وهَذِه إشارةٌ إلى فتحِ البِلادِ، وكَثرةِ جَلبِ الرَّقيقِ حَتَّى تَكثُرَ السَّراريُّ، ويَكثُرَ أولادُهُنَّ، فتَكونَ الأمَةُ رَقيقةً لسَيِّدِها وأولادُه مِنها بمَنزِلَتِه، فإنَّ وَلَدَ السَّيِّدِ بمَنزِلةِ السَّيِّدِ، فيَصيرُ وَلَدُ الأمَةِ بمَنزِلةِ رَبِّها وسَيِّدِها.

وقال ابنُ بازٍ: أشراطُ السَّاعةِ كثيرٌ، مِنها ما أخبَرَ به النَّبيُّ ﷺ لجِبرائيلَ (أن تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتَها) الأَمَةُ: يَعني الْمَملوكةَ، رَبَّتَها، وفي رِوايةٍ أخرى (رَبَّها)، يَعني: سَيِّدَها مِنها؛ لكَثرةِ الإماءِ بسَبَبِ السَّبيِ، وقَد وقَعَ هذا في عَهدِ النَّبيِّ ﷺ، وبَعدَه كثُرَ السَّبايا، وتَملَّكَ النَّاسُ الإماءَ، واستولَدوهُنَّ، هذا واقِعٌ من قَديمٍ .

تنبيه :

ترجيح ابن حجر :

قال : أن يَكثُرَ العُقوقُ في الأولادِ، فيُعامِلُ الوَلَدُ أمَّه مُعامَلةَ السَّيِّدِ أمَتَه مِنَ الإهانةِ بالسَّبِّ والضَّربِ والِاستِخدامِ، فأُطلِقَ عليه رَبُّها

مُجازًا لذلك، أوِ الْمُرادُ بالرَّبِّ الْمُرَبِي، فيَكونُ حَقيقةً، وهذا أوجَهُ الأوجُهِ عِندي لعُمومِه، ولِأنَّ الْمَقامَ يَدُلُّ على أنَّ الْمُرادَ حالةٌ تَكونُ مَعَ كونِها تَدُلُّ على فسادِ الأحوالِ مُستَغرَبةً ومُحَصِّلُه الإشارةُ إلى أنَّ السَّاعةَ يَقرُبُ قيامُها عِندَ انعِكاسِ الأمورِ، بحَيثُ يَصيرُ الْمُرَبَّى مُرَبِيًا والسَّافِلُ عاليًا، وهو مُناسِبٌ لقَولِه في العَلامةِ الأخرى: أن تَصيرَ الحُفَاةُ مُلوكَ الأرضِ . (الفتح) .

فائدة : ٢٤

من علامات الساعة (أَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ) .

وفي حديث أبي هريرة (وإذا تَطاوَلَ رُعاةُ الإبلِ البُهْم في البُنيانِ) .

يعني من علامات القيامة أن ترى أهل البادية ممن ليس لهم لباسٌ، ولا نعلٌ، بل كانوا رعاء الإبل والشاء يتوطّنون البلاد، ويتّخذون العقار، ويبنون الدور والقصور المرتفعة.

قال الخَطَّابِيُّ: في قَولِه (إذا تَطاوَلَ رُعاةُ الإبلِ البُهم في البُنيانِ) يُريدُ العَرَبَ الذينَ هم أربابُ الإبلِ ورُعاتُها. والبُهْمُ: جَمعُ البَهيمِ، وهو الْمَجهولُ الذي لا يُعرَفُ. ومِن هذا قيل: أبهَمَ الأمرُ وهو مُبهَمٌ، واستَبهم الشَّيءُ: إذا لَمْ تُعرَفْ حَقيقَتُه؛ ولِذلك قيلَ للدَّابةِ الَّتي لا شِيَةَ في لَونِها: بَهيمٌ .

وقال القرطبي : المقصود الإخبار عن تبدل الحال ، فاستولى أهل البادية على الأمر ، وتملكوا البلاد بالقهر ، فتكثر أموالهم وتنصرف همومهم إلى تشييد البنيان والتفاخر به ، وقد شاهدنا ذلك في هذه الأزمان . فمن علامات الساعة : أي يتفاخرون في طول بيوتهم ورفعتها ، يعني من علامات القيامة أن ترى أهل البادية ممن ليس لهم لباس ولا نعل بل كانوا رعاء الإبل والشاء يتوطّنون البلاد ، ويتخذون العقار ، ويبنون الدور والقصور المرتفعة .

وقال النَّوَوِيُّ: مَعناه: أنَّ أهلَ الباديةِ وأشباهَهم من أهلِ الحاجةِ والفاقةِ تُبسَطُ لَهم الدُّنيا حَتَّى يَتَباهون في البُنيانِ .

وقال ابنُ رَجَبٍ: العَلامةُ الثَّانيةُ (أن تَرى الحُفاةَ العُراةَ العالةَ) والمرادُ بالعالةِ: الفُقراءُ، كقَولِه تعالى (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى) .

وقَولُه: (رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطاوَلونَ في البُنيانِ) هَكَذا في حَديثِ عُمَرَ، والمرادُ: أن أسافِلَ النَّاسِ يَصيرونَ رُؤساءَهم، وتَكثُرُ أموالُهم حَتَّى يَتَباهونَ بطولِ البُنيانِ وزَخرَفَتِه وإتقانِه... ومَضمونُ ما ذُكِرَ من أشراطِ السَّاعةِ في هذا الحَديثِ يَرجِعُ إلى أنَّ الأمورَ تُوَسَّدُ إلى غَيرِ أهلِها، كما قال النَّبيُّ ﷺ لِمَن سَألَه عَنِ السَّاعةِ (إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غَيرِ أهلِه فانتَظِرِ السَّاعةَ) ، فإنَّه إذا صارَ الحُفاةُ العُراةُ رِعاءُ الشَّاءِ –وهم أهلُ الجَهْلِ والجَفاءِ– رُؤوسَ النَّاسِ، وأصحابَ الثَّروةِ والأموالِ، حَتَّى يَتَطاوَلوا في البُنيانِ، فإنَّه يَفسُدُ بذلك نِظامُ الدِّينِ والدُّنيا، فإنَّه إذا كان رَأسُ النَّاسِ من كان فقيرًا عائِلًا، فصارَ مَلِكًا على النَّاسِ، سَواءٌ كان مُلكُه عامًّا أو خاصًّا في بَعضِ الأشياءِ، فإنَّه لا يَكادُ يُعطي النَّاسَ حُقوقَهم، بَل يَستَأثِرُ عليهم بما استَولى عليه مِنَ الْمالِ... وإذا صارَ مُلوكُ النَّاسِ ورُؤوسُهم على هَذِه الحالِ انعَكَسَت سائِرُ الأحوالِ، فصُدِّقَ الكاذِبُ، وكُذِّبَ الصَّادِقُ، وائتُمِنَ الخائِنُ، وخُوِّنَ الأمِينُ، وتَكَلَّمَ الجاهِلُ، وسَكتَ العالِمُ، أو عَدمَ بالكُليةِ... وهذا كُلُّه مِنِ انقِلابِ الحَقائِقِ في آخِرِ الزَّمانِ وانعِكاسِ الأمور . (ابن رجب) .

وقال القَسطَلَّاني : (وإذا كان الحُفاةُ العُراةُ رُؤوسَ النَّاسِ) إشارةٌ إلى استيلائِهم على الأمرِ وتَمَلُّكِهم البِلَادَ بالقَهرِ، والمعنى: أنَّ الأذلَّةَ مِنَ النَّاسِ يَنقَلِبونَ أعزةَ مُلوكِ الأرضِ (فذاكَ من أشراطِها) .

وقال ابنُ عُثَيمين: (يَتَطاوَلونَ في البُنيانِ أيُّهم أعلى، ويَتَطاوَلونَ في البُنيانِ أيُّهم أحسَنُ، وهم في الأوَّلِ فُقَراءُ لا يَجِدونَ شَيئًا، لَكِن تَغَيَّرَ الحالُ بسُرعةٍ؛ ممَّا يَدُلُّ على قُربِ السَّاعةِ) .

فائدة : ٢٥

قال الحافظ ابن رجب: وفي قوله ﷺ (يتطاولون في البنيان) دليل على ذم التباهي والتفاخر خصوصاً بالتطاول في البنيان، ولم يكن

إطالة البناء معروفاً في زمن النبي ﷺ وأصحابه-، بل كان بنيانهم قصيراً بقدر الحاجة .

فائدة : ٢٦

اختلف لما خص النبي ﷺ هاتين العلامتين فقط ؟

قيل : لأنهما من أول ما يظهر في الناس .

وقيل : تحذيراً للحاضرين .

وقيل : لأن البلية تقع بهما فيتسع هذا الأمر في الخلق .

فائدة : ٢٧

قوله ﷺ (أتاكم يعلمكم دينكم) فيه أن الإيمان والإسلام والإحسان تسمى كلها ديناً .

فائدة : ٢٨

جواز إطلاق رمضان على الشهر وأنه لا يلزم قول: شهر رمضان، خلافاً لمن قال يكره قول (رمضان) من غير إضافة كلمة (شهر) ويدل لجواز ذلك :

قوله ﷺ (من صام رمضان إيماناً ...) متفق عليه .

وقوله ﷺ (لا تقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين ...) متفق عليه .

وقوله ﷺ (إذا جاء رمضان فتحت ...) متفق عليه .

وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يقال رمضان على انفراده بحال ، وإنما يقال شهر رمضان .

وهذا قول أصحاب مالك .

واستدلوا بحديث (لا تقولوا رمضان ، فإن رمضان اسم من أسماء الله ، ولكن قولوا شهر رمضان) .

قال النووي : قولهم أنه اسم من أسماء الله ليس بصحيح ، ولم يصح فيه شيء ، وإن كان قد جاء به أثر ضعيف .

وقال ابن حجر : أخرجه ابن عدي في الكامل وضعفه بأبي معشر .

فائدة : ٢٩

أن العالم قد ينتقل بالمسؤول إلى ما ينفعه ، لأنه سأله عن الساعة ، فأخبره بأشراطها .

الحديث الثالث

عَنْ أبي عبد الرحمن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِم .

==========

(**عَنِ ابْنِ عُمَرَ**) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبو عبد الرحمن، الفقيه، أحد الأعلام في العلم والعمل، أسلم صغيراً مع أبيه عمر ﷺ، مات في مكة سنة (٧٣) هـ

(**بني**) أي: أقيم.

(**خمس**) أي دعائم الإسلام: المراد هنا الدين.

(**إقامة الصلاة**) الإتيان بها والمداومة عليها.

(**صوم رمضان**) الصوم الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس بنية. سمي شهر رمضان بذلك: قيل: لأن الذنوب ترمض فيه، أي تحترق، وقيل: لأن فرضه كان في يوم حار.

فائدة : ١

أن الإسلام بني على هذه الأركان الخمس، فمن أنكر واحداً منها فليس بمسلم.

ومعنى الحديث: أن الإسلام بني على هذه الخمس، خمس كالأركان والدعائم لبنيانه، والمقصود تمثيل الإسلام ببنيانه، ودعائمه هذه الخمس، فلا يثبت البنيان بدونها.

فائدة : ٢

المقصود بالإسلام هنا الإسلام الخاص الذي بعث به محمد ﷺ .

لأن الإسلام في الكتاب والسنة له إطلاقان:

الإطلاق الأول: الإسلام العام.

كما قال تعالى (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ).

وقال تعالى (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً).

وقال سبحانه (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ..).

فالمقصود بالإسلام هنا الإسلام العام الذي يفسر بأنه: الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله.

الإطلاق الثاني: الإسلام الخاص.

وهو الذي بعث به محمد ﷺ، وهو الذي إذا أطلق لم يقصد إلا هو على وجه الخصوص.

فالمقصود بقوله (بني الإسلام ..) يعني الإسلام الخاص الذي جاء به نبينا محمد ﷺ .

فائدة : ٣

أن أركان الإسلام ترتيبها بالأهمية على حسب ترتيب النبي ﷺ لها في هذا الحديث.

فائدة : ٤

أن الشهادتين أهم أركان الإسلام.

فائدة : ٥

معنى شهادة أن لا إله إلا الله: أي لا معبود بحق إلا الله.

ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

فائدة : ٦

أن الإنسان لا يدخل بالإسلام إلا بالشهادتين.

ولذلك قال ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن (... فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإن هم أطاعوك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ..).

فائدة : ٧

أن الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين.

ولذلك قال ﷺ لمعاذ كما في الحديث السابق (.. فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة).

والمقصود بالصلاة : الصلوات الخمس .

وفرضت — قبل الهجرة – ليلة الإسراء والمعراج .

وفرضت أول ما فرضت خمسين صلاة ، ثم خففت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة .

كان النبي ﷺ يصليها ركعتين ركعتين إلا المغرب فثلاث ركعات، فلما هاجر إلى المدينة بقيت الركعتان للسفر، وزيدت صلاة المقيم إلى أربع ركعات، إلا الفجر فبقيت ركعتين.

وهي أول ما يحاسب عليه العبد من أعماله يوم القيامة.

وهي عمود الدين.

فائدة : ٨

وجوب إيتاء الزكاة لمستحقها، وأن ذلك من أركان الإسلام. والزكاة قرينة الصلاة في كثير من المواضع:

قال تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة).

وقال تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ).

وقال النبي ﷺ لمعاذ (... فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات ... فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ ...).

وسميت زكاة: لأنها تزكي المال، وتزكي صاحب المال، وتطهر نفس الغني من الشح والبخل، وتطهر نفس الفقير من الحسد والضغينة، وتسد حاجة الإسلام والمسلمين ، كما قال تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها).

فرضت بعد الهجرة ، قال النووي: إن ذلك كان في السنة الثانية من الهجرة ، قال ابن حجر: وهو قول الأكثر ، وإنما الذي وقع في السنة التاسعة بعث العمال.

فائدة : ٩

وجوب صوم رمضان.

وهو التعبد لله بالإمساك عن الأكل والشرب وسائر المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

قال ابن حجر: واختلف في تسمية هذا الشهر رمضان فقيل: لأنه ترمض فيه الذنوب، أي تحرق لأن الرمضاء شدة الحر، وقيل وافق ابتداء الصوم فيه زمناً حاراً. (الفتح).

قال ابن القيم: وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة، فتوفي رسول الله ﷺ وقد صام تسع رمضانات

فائدة : ١٠

وجوب الحج على المستطيع.

وهو التعبد لله بأداء المناسك على صفة مخصوصة في وقت مخصوص.

اختلف العلماء في فرض الحج : فالجمهور أنه فرض في السنة السادسة ورجحه ابن حجر ، وقيل سنة تسع ورجحه ابن القيم .

قال ابن القيم: ولا خلاف أنه ﷺ لم يحج بعد هجرته إلى المدينة سوى حجة الوداع، ولا خلاف أنها كانت سنة عشر.

حكم تارك الحج تهاوناً وكسلاً : جمهور العلماء أنه لا يكفر.

قال النووي: إذا حج بمال حرام أو راكباً دابة مغصوبة أثم وصح حجه وأجزأه عندنا، وبه قال أبو حنيفة ومالك، وبه قال أكثر الفقهاء .

فائدة : ١١

إذا ترك الإنسان واحداً من أركان الإسلام هل يكفر؟

نقول: تارك أحد الأركان لا يخلو من حالات:

الأولى: أن يترك الشهادتين فلا ينطقها فهذا كافر ولا خلاف في هذا، لأنه لا يصير مسلماً إلا بها.

الثانية: أن يترك الصلاة فهذا فيه خلاف على قولين في كفره:

و الراجح: أنه يكفر كما هو مذهب الإمام أحمد و غيره للأدلة الكثيرة:

منها قول الرسول ﷺ كما عند الترمذي (العهد الذي بيننا و بينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر).

وقوله ﷺ (بين الرجل و الشرك و الكفر ترك الصلاة) رواه مسلم.

و عن عبد الله بن شقيق ﷺ قال: (ما كان أصحاب محمد يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة).

الثالثة: أن يترك الزكاة أو الصيام أو الحج تهاوناً وكسلاً:

فهذا اختلف العلماء في كفره على قولين – هما روايتان عن الإمام أحمد –:

و أقربهما أنه لا يكفر ولكنه مرتكب كبيرة من الذنوب يستحق عليها العقوبة الدنيوية و الأخروية.

لأثر عبد الله بن شقيق ﷺ السابق قال (ما كان أصحاب محمد يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة).

ولحديث أبي هريرة ﷺ في تارك الزكاة وفيه (حتى يرى سبيله إما إلى الجنة و إما إلى النار) فلو كان كافراً لقطع له بالنار، واختار هذا الشيخ ابن عثيمين.

فائدة : ١٢

فضل الإحسان إلى الخلق.

فائدة : ١٣

فضل المال للرجل الصالح حيث يعطي حقه ويصرف منه في وجوه الخير.

فائدة : ١٤

اهتمام الشريعة الإسلامية بالفقراء والمساكين، حيث أمرت الأغنياء بدفع جزء قليل من مالهم للفقراء، ورتبت الأجر الكبير على من ساعد الفقراء والمساكين.

فائدة : ١٥

الحرص على تزكية النفس، لأن الزكاة تزكية للنفس والمال.

فائدة : ١٦

جواز إطلاق (رمضان) دون إضافة لفظة (شهر) إليه وهذا مذهب جماهير العلماء وقد تقدمت المسألة .

فائدة : ١٧

حكمة الشرع العظيمة، في أن هذه العبادات منها ما هو واجب يومي، ومنها ما هو سنوي ومنها ما هو واجب في العمر مرة واحدة.

فائدة: ١٨

سؤال: لماذا لم يذكر الجهاد مع أن الجهاد من أفضل الأعمال؟

الجواب: لأنه فرض كفاية ولا يتعين إلا في بعض الأحوال.

فائدة : ١٩

ما وجه الحصر في هذه الخمسة؟

أجيب: بأن العبادة إما قولية وهي الشهادة، أو غير قولية، فهي إما تركّيّ وهو الصوم، أو فعلي وهو إما بدني وهو الصلاة، أو مالي وهو الزكاة، أو مركب منهما وهو الحج.

الحديث الرابع

٣٩٦ – عن ابن مسعود ﷺ قَالَ: حدثنا رَسُول الله ﷺ وَهُوَ الصادق المصدوق (إنَّ أحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ أربَعِينَ يَومًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ المَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ. فَوَالَّذِي لاَ إلهَ غَيْرُهُ إنَّ أحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبيْنَهَا إلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلاَّ ذراعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

==========

(**عن ابن مسعود**) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ﷺ، كان سادس رجل في الإسلام، وهاجر الهجرتين، وشهد بدراً والمشاهد بعدها، قال له النبي ﷺ في أول الإسلام (إنك غلام معلَّم) وروى البخاري عنه أنه قال: (والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة...) وقال النبي ﷺ (من أحبّ أن يقرأ القران غضاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أمّ عبد).

وكان ممن يخدم النبي ﷺ ، وهو صاحب سواكه ونعليه ووساده، قال حذيفة ﷺ: (ما أعرف أحداً أقرب سمتاً وهدياً ودلًّا بالنبي ﷺ من ابن أم عبد) .

تولى القضاء وبيت المال في الكوفة على عهد عمر رضي الله عنه وصدراً من خلافة عثمان ﷺ، ثم دعاه إلى المدينة، ومات فيها سنة : ٣٢ ﷺ .

(**الصادق**) فِي قَوْله .

(**المصدوق**) فِيمَا يَأْتِي مِنْ الْوَحْي الْكَرِيم .

(**إنَّ أحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ**) المراد بالجمع: ضمّ بعضه إلى بعض بعد الانتشار .

(**أربَعِينَ يَومًا نُطْفَةً**) المراد بالنطفة المني .

(**ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلِكَ**) العلقة هي الدم الجامد الغليظ.

(**ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذلِكَ**) هذا الطور الثالث الذي يمر به الجنين، والمضغة هي مضغة من لحم، وسميت بذلك لأنها قدر ما يمضغ الماضغ .

(**ثُمَّ يُرْسَلُ المَلَكُ**) وفي رواية للبخاريّ: (ثم يبعث الله ملكًا) أي: يبعث الله إليه الملَك في الطور الرابع حينما يتكامل بنيانه، وتتشكّل أعضاؤه، فيعيّن، ويُنقش فيه ما يليق به من الأعمال والأعمار والأرزاق حسبما اقتضته حكمته، وسبقت كلمته .

(**وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ**) أي: يؤمر بكتب أربعة أشياء من أحوال الجنين ، والمراد بالكلمات: القضايا المقدرّة، وكل قضيّة تسمى كلمة .

(**بِكَتْبِ رِزْقِهِ**) المراد من كتابة الرزق: تقديره قليلًا أو كثيرًا، وصفته حرامًا، أو حلالًا .

(**وَأَجَلِهِ**) أي : هل هو طويل أو قصير .

(**وَعَمَلِهِ**) أي : هل هو صالح، أو فاسد .

(**وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ**) أي : أن الملك يكتب إحدى الكلمتين، كأن يكتب مثلًا: أجل هذا الجنين كذا، ورزقه كذا، وعمله كذا، وهو شقيّ باعتبار ما يُختم له، وسعيد باعتبار ما يُختم له، كما دل عليه بقية الخبر .

وأما صفة الكتابة: فظاهر الحديث أنها الكتابة المعهودة في صحيفته، ووقع ذلك صريحًا في حديث حذيفة بن أَسِيد عند مسلم (ثم تطوى الصحيفة، فلا يزاد فيها، ولا ينقص) وفي رواية الفريابيّ (ثم تُطْوَى تلك الصحيفة إلى يوم القيامة) .

(**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ**) يعني: من الطاعات الاعتقادية، والقولية، والفعلية .

(**حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبيْنَهَا إلاَّ ذِرَاعٌ**) والتعبير بالذراع تمثيل بقرب حاله من الموت، فيحال مَن بينه وبين المكان المقصود بمقدار ذراع، أو باعٍ من المسافة . (قاله في الفتح) .

فائدة : ١

هذا حديث عظيم جليل .

قال ابن الملقن : لو أمعن الأئمة النظر في هذا الحديث كله من أوله إلى آخره، لوجدوه متضمنًا لعلوم الشريعة كلها ظاهرها وباطنها

وقال ابن حجر الهيتمي : هو حديث عظيم جليل، يتعلق بمبدأ الخلق ونهايته، وأحكام القدر في المبدأ والمعاد .

وقال الجرداني : هذا الحديث حديث عظيم جامع لجميع أحوال الشخص؛ إذ فيه بيان حال مبدئه وهو خلقه، وحال معاده وهو السعادة أو الشقاء، وما بينهما وهو الأجل، وما يتصرف فيه وهو الرزق .

فائدة : ٢

في هذا الحديث ذكر النبي ﷺ أطوار الجنين في بطن أمه، وأنه يتقلب في بطن أمه مائة وعشرون يوماً في ثلاثة أطوار، فيكون في الأربعين الأولى نطفة، ثم في الأربعين الثانية علقة، ثم في الأربعين الثالثة مضغة .

قال تعالى في كتابه (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ).

فائدة : ٣

الحديث دليل على أن كتابة المقادير تكون بعد الأربعين الثالثة .

لكن جاء في حديث حذيفة بن أَسِيد عند مسلم، أن الكتابة بعد الأربعين الأولى، في بداية الأربعين الثانية .

قال ﷺ (ذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكاً فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا ثُمَّ. قَالَ يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى فَيَقْضِى رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ أَجَلُه ..).

وقد اختلف العلماء في الجمع بين ذلك على أقوال:

القول الأول: فذهب طائفة إلى أن الكتابة تكون في الأربعين الأولى.

وقالوا يشهد لهذا ما روي عن عدد من الصحابة منهم عبد الله بن عمرو، وأبو ذر، أنها بعد الأربعين.

وقالوا: إنما تأخر ذكرها في حديث ابن مسعود إلى ما بعد ذكر المضغة لئلا ينقطع ذكر الأطوار الثلاثة التي يتقلب فيها الجنين فإن ذكرها على نسق واحد، أعجب و أحسن.

القول الثاني: إن ذلك يختلف باختلاف الأجنة فبعضهم على ما في حديث ابن مسعود وبعضهم على ما في حديث حذيفة.

وإلى هذا مال ابن رجب .

القول الثالث : أن الأحاديث المروية عن النبي ﷺ قد دلت على أن كتابة المقادير في الرحم مرتين اثنتين:

أولاهما: بعد الأربعين الأولى، في بداية الأربعين الثانية، كما في حديث حذيفة عند مسلم.

وثانيهما: بعد الأربعين الثالثة كما جاء في حديث ابن مسعود هذا.

وهذا القول هو الذي تجتمع به الأحاديث المتعارضة .

وإلى هذا ذهب القاضي عياض ، وابن الصلاح ، واختار هذا القول ابن القيم ونصره.

فائدة : ٤

أن نفخ الروح يكون بعد تمام أربعة أشهر ، لقوله : ثم يرسل إليه الملك ... .

وينبني على هذا :

أولاً : أنه إذا سقط بعد نفخ الروح فيه فإنه يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين .

ثانياً : أنه يحرم إسقاطه .

فائدة : ٥

الحديث دليل على أن من الملائكة من هو موكل بالنفخ في الأجنة ، والمراد الملَك الموكل بالرحم .

ففي حذيفة بن أَسِيد من رواية ربيعة بن كلثوم (أن ملكًا موكلًا بالرحم) .

ومن رواية عكرمة بن خالد (ثم يتسوَّر عليها الملَك الذي يُخَلِّقها) وهو بتشديد اللام .

وفي رواية أبي الزبير عند الفريابي (أتى ملك الأرحام) وأصله عند مسلم، لكن بلفظ (بعث الله ملكًا) .

فائدة : ٦

كثرة الملائكة .

فالمِلائِكة خَلقٌ كثيرٌ لا يعلَمُ عَدَدَهم إلَّا اللهُ تعالى.

أ-قال الله عَزَّ وجَلّ (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) .

قال ابنُ جريرٍ: وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ مِن كَثرتِهم إِلَّا هُوَ يعني اللهَ .

وقال ابنُ كثيرٍ: أي: ما يعلَمُ عَدَدَهم وكَثْرَتَهم إلَّا هو تعالى؛ لئلَّا يتوهَّمَ متوَهِّمٌ أنَّهم تِسعةَ عَشَرَ فقط، كما قد قاله طائفةٌ من أهلِ الضَّلالةِ والجَهالةِ ومِن الفلاسِفةِ اليونانيّين. ومن تابعهم من المِلَّتين الذين سمعوا هذه الآيةَ، فأرادوا تنزيلَها على العُقولِ العَشَرة والنُّفوسِ التِّسعةِ التي اخترعوا دعواها وعَجَزوا عن إقامةِ الدَّلالةِ على مُقتضاها .

ب-قَالَ النَّبِيُّ ﷺ في حديث الإسراء : (ثُمَّ رُفِعَ لِي الْبَيْتُ المعْمُورُ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ المعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِم) رواه مسلم .

قال النوويّ : وفي هذا أعظَمُ دليلٍ على كثرةِ المِلائِكةِ صَلَواتُ اللهِ وسلامُه عليهم. واللهُ أعلمُ .

وقال ابنُ حَجَرٍ : استُدِلَّ به على أنَّ المِلائِكةَ أكثَرُ المخلوقاتِ؛ لأنَّه لا يُعرَفُ مِن جميعِ العوالِمِ من يتجَدَّدُ من جنسِه في كُلِّ يومٍ سبعون ألفًا غيرُ ما ثبت عن المِلائِكةِ في هذا الخَبرِ .

ج- وممَّا يدُلُّ على كثرتِهم ما رواه عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ ﷺ، عن نبيِّ اللهِ ﷺ فقال (يؤتى بجهَنَّمَ يومَئذٍ لها سبعون ألفَ زِمامٍ، مع كُلِّ زمامٍ سبعون ألفَ مَلَكٍ يجرُّونَها) رواه مسلم .

قال ابنُ تَيمِيَّةَ : ومَلائِكةُ اللهِ لا يُحصي عَدَدَهم إلَّا اللهُ .

ج-وعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّه) رواه الترمذي .

والملائكة كثيرون، وكل له عمل خاص به :

فمنهم الموكل بالوحي، وهو جبريل عليه السلام.

قال الله تعالى (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) .

وقال الله تعالى (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ) .

ومنهم الموكل بالقَطْر، وهو ميكائيل عليه السلام .

قال ابن كثير: أما ميكائيل فموكل بالقَطْر، والنبات، وهو ذو مكانة من ربه عز وجل، ومن أشراف الملائكة المقربين .

وقال أيضاً: ميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يُخلق منهما الأرزاق في هذه الدار، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب جل جلال

ومنهم الموكل بالنفخ في الصور، وهو إسرافيل عليه السلام.

قال ابن كثير: إسرافيل موكل بالنفخ في الصور للقيام من القبور، والحضور يوم البعث والنشور .

ومنهم الموكل بقبض الأرواح، وهو ملك الموت.

قال الله تعالى (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُون) .

قال ابن كثير : أما ملك الموت فليس بمصرَّح باسمه في القرآن، ولا في الأحاديث الصحاح... وله أعوان يستخرجون روح العبد من جثته حتى تبلغ الحلقوم .

ومنهم حملة العرش:

قال الله تعالى فيهم (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيم) .

وقال الله تعالى (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ) .

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَال (أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَام) .

ومنهم الموكلون بفتنة القبر، وهم المنكر والنكير.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ - أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ- أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: المُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرِ) رواه الترمذي .

ومنهم خزنة الجنة.

قال الله تعالى (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِين) .

تنبيه :

لم يثبت من أسماء الملائكة إلا ثمانية:

جبريل، وميكال وإسرافيل عليهم السلام .

ففي حديث عائشة في قيام النبي ﷺ بالليل كان يقول (اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) رواه مسلم .

هاروت وماروت عليهما السلام .

ذكرهما الله جل جلاله في قوله (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ) .

ومالك خازن النار عليه السلام .

ذكره الله في قوله جل جلاله (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُون) .

والمنكر، والنكير عليهما السلام .

ذكرهما النبي ﷺ في قوله (إِذَا قُبِرَ الميِّتُ -أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ- أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: المُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِير).

أما غير هذه الأسماء، فإما صفات، كرقيب، وعتيد.

وإما ورد باسم وظيفته، كملك الموت، وملك الجبال.

وإما ورد في أحاديث ضعيفة، وموضوعة، كعزرائيل، وكرضوان .

فائدة : ٧

الحديث دليل على أن الملائكة عبيد يؤمرون وينهون ، والملائكة عملهم عبادة الله وطاعته:

قال تعالى (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ).

وقال تعالى (وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ).

وقال تعالى (لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ).

فائدة : ٨

هذه الكتابة التي تُكتب للجنين في بطن أمه غير كتابة المقادير السابقة لخلق الخلق المذكورة في قوله تعالى (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا).

وأقسام التقدير أربع:

الأول: التقدير العام لجميع الأشياء في اللوح المحفوظ.

قال تعالى (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا).

قال تعالى (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ).

وعن عبد الله بن عمرو . عن النبي ﷺ قال (إن الله كتب مقادير السموات والأرض قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة) رواه مسلم.

وعن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال (أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة). رواه أبو داود

وقد تكاثرت النصوص بذكر الكتاب السابق بالسعادة والشقاوة.

فعن عمران بن حصين. قال: قال رجل: يا رسول الله! أيُعرف أهلُ الجنة من أهل النار؟ قال: نعم، قال: فلم يعمل العاملون؟ قال: كل يعملُ لما خُلقَ له، أو لما يُيسر له) متفق عليه.

الثاني: التقدير العمري.

كما في حديث الباب.

(وهذا التقدير يختلف عن التقدير الذي في اللوح المحفوظ بأن التقدير العمري يقبل التغيير والمحو، وأما الذي في اللوح المحفوظ فإنه لا يقبل التغيير، بمعنى أن ما كتبه الله في اللوح المحفوظ لا يقبل المحو ولا التغيير).

قال تعالى (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ).

قال السعدي : (يمحو الله ما يشاء ويثبت) يمحو الله ما يشاء من الأقدار ويثبت ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه، وكتبه قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير، لأن ذلك محال على الله أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال (وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَاب) أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع وشعب، فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب.

ولهذا كان عمر يقول: اللهم إن كنت كتبتني شقياً فامحني واكتبني سعيداً.

وهذا يعني به الكتابة في صحف الملائكة لا الذي في اللوح المحفوظ.

الثالث: التقدير السنوي وذلك يكون في ليلة القدر.

ففيها يكتب من أم الكتاب ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر.

قال تعالى (إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين. فيها يفرق كل أمر حكيم. أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين).

الرابع: التقدير اليومي.

ويدل عليه قوله تعالى (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ).

فائدة : ٩

الحديث دليل على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، لقوله تعالى: ويؤمر بكتب أربع كلمات: بكتب رزقه وأجله ... ، فكل شيء مكتوب ومفروغ منه.

والإيمان بالقضاء والقدر يتضمن أربع مراتب :

أولاً: الإيمان بأن الله علم بكل شيء جملة وتفصيلاً ، أزلاً وأبداً.

قال تعالى (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وقال تعالى (وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً).

ثانياً: الإيمان بأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ.

كما قال تعالى (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا).

وقال ﷺ (إن الله كتب مقادير السموات والأرض قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة) رواه مسلم.

وفي هذين الأمرين يقول الله تعالى (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ).

الثالث: الإيمان بأن جميع الكائنات لا تكون إلا بمشيئة الله تعالى.

قال تعالى (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) وقال تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً).

الرابع: الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله.

قال تعالى (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ).

فائدة : ١٠

قوله (**بكتب رزقه**) فيه دليل على وجوب التوكل على الله، وعدم الخوف من الفقر، لأن الرزق مكتوب.

قال تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

وقال تعالى (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُون) .

وصحَّ عنه ﷺ من حديث أبي الدرداء أنه قال (إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجلُه) .

وقال ﷺ (إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم) .

وقوله ﷺ (يا أبا هريرة، جف القلم بما أنت لاقٍ) .

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ) رواه ابن ماجه .

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ، إِلاَّ قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ، وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، إِلاَّ قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، وَإِنَّ الرُّوحَ الأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوعِيَ أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلاَ يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللهِ، فَإِنَّهُ لاَ يُدْرَكُ مَا عِنْدَ اللهِ إِلاَّ بِطَاعَتِهِ رواه ابن أبي شيبة ، والبيهقي في "الشعب" .

وعن أُم حَبِيبَة زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ أنها قالت (اللَّهُمَّ أَمْتِعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللَّه ﷺ وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ. قَالَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : قَدْ سَأَلْتِ اللَّهَ لآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئاً قَبْلَ حِلِّهِ أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئاً عَنْ حِلِّهِ وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللَّهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ كَانَ خَيْراً وَأَفْضَلَ) رواه مسلم.

فما كُتب للعبد مِن رزق وأجل، فلا بد أن يستكمله قبل أن يموت .

عن جابر ﷺ . أن النبي ﷺ قال (لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ فَرَّ مِنْ رِزْقِهِ كَمَا يَفِرُّ مِنَ الموْتِ، لأَدْرَكَهُ رِزْقُهُ كما يُدْرِكُهُ الموْتُ) .

قال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس غماً الحسود، وأهنأهم عيشاً القنوع.

وسئل أبو حازم فقيل له: ما مالك؟ قال: لي مالان لا أخشى معهما الفقر: الثقة بالله، واليأس مما في أيدي.

وسئل الحسن البصري عن سر زهده في الدنيا؟ فقال: أربعة أشياء: علمت أن رزقي لا يأخذه غيري فاطمأن قلبي، وعلمت أن عملي لا يقوم به غيري فاشتغلت به وحدي، وعلمت أن الله مطلع علي فاستحييت أن يراني عاصياً، وعلمت أن الموت ينتظرني فأعددت الزاد للقاء ربي.

قال بعض السلف: إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أشياء: مؤمن قتل مؤمناً، ورجل يموت على الكفر، وقلب فيه خوف الفقر.

وعلى هـــــذا :

أ-يجب الإيمان بأن الرزق مكتوب ، لايجلبه حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره .

ب-أن هذا لا يمنع فعل الأسباب التي شرع الله لعباده الأخْذ بها .

ج-أن يسعى العبد في طلب الرزق الحلال ، وأن يجتنب الحرام .

د-أن لا يطلب الرزق بجشع وحرص .

فائدة : ١١

قوله (**وَأَجَلِهِ** ..) فيه الحث على العمل الصالح والإكثار منه ، لأن الإنسان لا يدري متى يأتيه الموت .

فالإنسان لا يدري متى يفاجئه الموت .

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .

وقال ﷺ (بادروا بالأعمال سبعاً، هل تنتظرون إلى فقْراً منسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو موتاً مجهزاً ...) رواه الترمذي وفيه ضعف.

وقال ﷺ (اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وفراغك قبل شغلك، وصحتك قبل مرضك، وغناك قبل فقرك) .

تزود من الدنيا فإنك لا تدري ------ إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر

فكم من صحيح مات من غير علة ------ وكم من سقيم عاش حينا من الدهر

وكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا ------ وأكفانه في الغيب تنسج وهو لا يدري

وكم من صغار يرتجى طول عمرهم ------ وقد أدخلت أجسامهم ظلمة القبر

وكم من عروس زينوها لزوجها ------ وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر

فمن عاش ألفاً وألفين------ فلا بد من يوم يسير إلى القبر

ولهذا يتمنى الإنسان العمل الصالح عند احتضاره :

وقال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ...) .

وقال تعالى (وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ).

ولهذا ينبغي للمسلم المسارعة إلى الخيرات .

كما قال تعالى (وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ).

وقال تعالى (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

وقال تعالى (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً).

وقال تعالى (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُون).

فائدة : ١٢

أن الناس ينقسمون إلى قسمين لا ثالث لهما : شقي ، أو سعيد .

قال تعالى (فريق في الجنة وفريق في السعير) .

وقال تعالى (فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق ...) .

وقال سبحانه (وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ...) .

فائدة : ١٣

التحذير من سوء الخاتمة .

والْمَقْصُودُ بِسُوءِ الْخَاتِمَةِ : أَنْ يَمُوتَ الْعَبْدُ عَلَى حَالَةٍ سَيِّئَةٍ؛ مِنْ كُفْرٍ، أَوْ جُحُودٍ، أَوْ شَكٍّ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ لَهُ الْخُلُودَ فِي النَّارِ. وَأَدْنَى مِنْهُ: أَنْ يَمُوتَ وَهُوَ مُتَلَبِّسٌ بِمَعْصِيَةٍ، أَوْ مُصِرٌّ عَلَيْهَا بِقَلْبِهِ، وَالْمَرْءُ يُبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ) رواه مسلم .

زاد أحمد من وجه آخر عن أبي هريرة (سبعين سنةً) .

وعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ (لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَعْجَبُوا بِأَحَدٍ، حَتَّى تَنْظُرُوا بِمَ يُخْتَمُ لَهُ، فَإِنَّ الْعَامِلَ يَعْمَلُ زَمَانًا مِنْ عُمْرِهِ، أَوْ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ، بِعَمَلٍ صَالِحٍ، لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا سَيِّئًا، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ الْبُرْهَةَ مِنْ دَهْرِهِ بِعَمَلٍ سَيِّئٍ، لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ النَّارَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ "، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ؟ قَالَ " يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ، ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ) رواه أحمد .

وعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّهُ لَمَكْتُوبٌ فِي الْكِتَابِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَإِذَا كَانَ قَبْلَ مَوْتِهِ تَحَوَّلَ فَعَمِلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَمَاتَ، فَدَخَلَ النَّارَ .... الحديث) رواه أحمد .

وعنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي قَالَ (خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ فَقَالَ «أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الْكِتَابَانِ». فَقُلْنَا لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلاَّ أَنْ تُخْبِرَنَا. فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَدِهِ الْيُمْنَى «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلاَ يُزَادُ فِيهِمْ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا». ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي شِمَالِهِ «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلاَ يُزَادُ فِيهِمْ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا». فَقَالَ أَصْحَابُهُ فَفِيمَ الْعَمَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَ أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ فَقَالَ «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – بِيَدَيْهِ فَنَبَذَهُمَا ثُمَّ قَالَ «فَرَغَ رَبُّكُمْ مِنَ الْعِبَادِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) رواه الترمذي.

وعن سهل بن سعد . قال : قال ﷺ (إنما الأعمال بالخواتيم) رواه البخاري .

وقد كان السلف رحمهم الله يخافون من سوء الخاتمة .

كان مالك بن دينار، يقوم طول ليله قابضاً على لحيته، ويقول : يا رب، قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار، ففي أي الدارين منزل مالك.

وبكى بعض الصحابة عند موته ، فسئل عن ذلك فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله تعالى قبض خلقه قبضتين فقال : هؤلاء في الجنة ، وهؤلاء في النار) ولا أدري في أي القبضتين كنت .

وقال أبو الدَّرداء: "ما أحدٌ أَمِنَ على إيمانه ألَّا يُسْلَبَهُ عند الموت؛ إلا سُلِبَهُ .

ولما حضرتِ الوفاةُ سفيانَ الثَّوري رحمه الله جَعَل يبكي؛ فقال له رجلٌ: "يا أبا عبد الله، أَمِنْ كَثْرَةِ الذُّنوب؟"؛ فقال: "لا، ولكن أخاف أنْ أُسْلَبَ الإيمانَ قبل الموت .

فمِن هذا خاف السَّلف مِن الذنوب؛ أن تكون حجابًا بينهم وبين الخاتمة الحسنة.

قال ابن القيّم : وهذا مِن أعْظم الفِقه؛ أنْ يخاف الرجل أن تَخْدَعَهُ ذنوبه عند الموت، فتَحُولُ بينه وبين الخاتمة الحُسْنى .

فيجب الحذر من سوء الخاتمة .

ولعل من أعظم أسبابها :مُخَالَفَةُ الْبَاطِنِ لِلظَّاهِرِ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ – فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ – وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ) .

فَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ (فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ) فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ بَاطِنَهُ خِلَافُ ظَاهِرِهِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَسُوءَ خَاتِمَةُ مَنْ صَلُحَ ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ.

فَقَدْ يَكُونُ الْعَبْدُ بِظَاهِرِهِ مُطِيعًا لِلَّهِ، وَلَكِنَّهُ يُبْطِنُ النِّفَاقَ، أَوِ الرِّيَاءَ، أَوْ تَكُونُ فِي قَلْبِهِ دَسِيسَةٌ مِنْ دَسَائِسِ السُّوءِ؛ كَالْكِبْرِ أَوِ الْعُجْبِ، فَيَظْهَرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ فِي سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، وَيُخْتَمُ لَهُ بِهِ، فَتَكُونُ الْخَسَارَةُ الْأَبَدِيَّةُ، وَالْهَلَاكُ الْأُخْرَوِيُّ .

كَمَا فِي قِصَّةِ الَّذِي كَانَ يُقَاتِلُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَيُبْلِي بَلَاءً حَسَنًا، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَى، أَوْ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَلَمَّا جُرِحَ اسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَانْتَحَرَ!

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ (شَهِدْنَا خَيْبَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِرَجُلٍ مِمَّنْ مَعَهُ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ: «هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! صَدَّقَ اللَّهُ حَدِيثَكَ، انْتَحَرَ فُلَانٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ: «قُمْ يَا فُلَانُ! فَأَذِّنْ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُؤْمِنٌ، إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

قال ابن رجب : إن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس ، إما من جهة عمل سيء ونحو ذلك ، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت .

ومنها : لْإِصْرَارُ عَلَى الْمَعَاصِي:

فَمَنْ أَلِفَ الْمَعْصِيَةَ، وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ حَتَّى فِي اللَّحَظَاتِ الْأَخِيرَةِ، فَإِذَا أَرَادَ مَنْ حَوْلَهُ أَنْ يُلَقِّنُوهُ الشَّهَادَةَ، طَغَتِ الْمَعْصِيَةُ عَلَى تَفْكِيرِهِ، فَتَكَلَّمَ بِمَا يُفِيدُ اشْتِغَالَهُ بِهَا، وَخُتِمَ لَهُ بِالسُّوءِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ – فِي سِيَاقِ حَدِيثِهِ عَنْ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي: (وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنْ يَخُونَهُ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ – عِنْدَ الِاحْتِضَارِ، وَالِانْتِقَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى – فَرُبَّمَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ النُّطْقُ بِالشَّهَادَةِ؛ كَمَا شَاهَدَ النَّاسُ كَثِيرًا مِنَ الْمُحْتَضَرِينَ أَصَابَهُمْ ذَلِكَ .

حَتَّى قِيلَ لِبَعْضِهِمْ: "قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ"، فَقَالَ: "آهْ آهْ، لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَهَا!".

وَقِيلَ لِآخَرَ: "قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ"، فَجَعَلَ يَهْذِي بِالْغِنَاءِ وَيَقُولُ: "تَانَا تِنْتَا!"، حَتَّى قَضَى.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: "وَمَا يَنْفَعُنِي مَا تَقُولُ، وَلَمْ أَدَعْ مَعْصِيَةً إِلَّا رَكِبْتُهَا"، ثُمَّ قَضَى وَلَمْ يَقُلْهَا.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: "وَمَا يُغْنِي عَنِّي، وَمَا أَعْرِفُ أَنِّي صَلَّيْتُ لِلَّهِ صَلَاةً!" ثُمَّ قَضَى، وَلَمْ يَقُلْهَا.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: "هُوَ كَافِرٌ بِمَا تَقُولُ!"، وَقَضَى.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: "كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَهَا لِسَانِي يُمْسِكُ عَنْهَا . (الجواب الكافي) .

ومنها : الكِبْرُ والعُجْبُ:

قال تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) .

وقال تعالى (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) .

قال ابْنُ القَيِّم : وإذا نظرتَ إلى حال كثير مِن المحتضَرين: وَجَدْتَهم يُحال بينهم وبين حُسْن الخاتمة؛ عقوبةً لهم على أعمالهم السيئة

قال ابن كثير : والذنوب والمعاصي والشهوات تخذل صاحبها عند الموت مع خذلان الشيطان له؛ فيجتمع عليه الخذلان مع ضعف الإيمان؛ فيقع في سوء الخاتمة .

وقال ابن قُدامةَ رحمه الله : وإذا عرفتَ معنى سوء الخاتمة؛ فاحذرْ أسبابَها، وأَعِدَّ ما يصلح لها، وإيَّاك والتَّسويف بالاستعداد؛ فإنَّ العمرَ قصيرٌ، وكلَّ نَفَسٍ مِن أنفاسك بمنزلة خاتمتِكَ؛ لأنه يُمْكن أنْ تُخطَف فيه رُوحُكَ، والإنسان يموت على ما عاش عليه، ويُحْشَرُ على ما مات عليه .

وقال المزني : دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه، فقلت له: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت عن الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقاً، ولكأس المنيّة شارباً، ولعملي مفارقاً، وعلى الله وارداً، ثم بكى وقال: لا أدري أتصير روحي إلى الجنة فأُهنّيها، أم إلى النار فأُعزّيها؟!!

ولما حضرت الإمام الصالح محمد بن سيرين الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لتفريطي في الأيام الخالية، وقلة عملي للجنة العالية، وما ينجيني من النار الحامية.

قال الإمام الغزالي رحمه الله : الخاتمة غير معلومة... وخطر الخاتمة باقٍ، ففي الخوف من سوء الخاتمة شغلٌ عن الفرح بكل ما في الدنيا".

وقال الحافظ ابن الجوزي رحمه الله: "للنفوس الخيرة علامات: الجد في الغالب، والحذر من الزَّلل، والاحتقار للعمل، والقلق من خوف السابقة، والجزع من حذر الخاتمة .

فائدة : ١٤

قال ابن بطَّال : وفي تغييب خاتمة العمل عن العبد حكمةٌ بالغة، وتدبيرٌ لطيفٌ؛ لأنه لو علِم وكان ناجيًا أُعْجِبَ وكسل، وإنْ كان هالكًا ازداد عُتُوًّا، فحُجِبَ عنه ذلك؛ ليكون بين الخوف والرجاء"

فائدة : ١٥

استحباب دعاء الله بالثبات على الإيمان .

عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ) رواه مسلم .

وعَنْ أَنَس قَالَ (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ : يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا قَالَ «نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاء) رواه الترمذي .

فائدة : ١٦

يجب على المسلم أن يحرص أن يطهر باطنه ، كما يحرص أن يطهر ظاهره .

قال القرطبي : فيستفاد من هذا الحديث الاجتهاد في إخلاص الأعمال لله تعالى، والتحرز من الرياء، ويستفاد من حديث ابن مسعود تَرْك العُجْب بالأعمال، وترك الالتفات، والركون إليها، والتعويل على كرم الله تعالى، ورحمته، والاعتراف بمنّته، كما قال ﷺ: لن يُنْجي أحدًا منكم عمله ... . (المفهم) .

فائدة : ١٧

قوله (إنَّ أَحَدكُمْ لِيَعْمَل بِعَمَلِ أَهْل الْجَنَّة حَتَّى مَا يَكُون بَيْنه وَبَيْنهَا إِلَّا ذِرَاع ، فَيَسْبِق عَلَيْهِ الْكِتَاب ، فَيَعْمَل بِعَمَلِ أَهْل النَّار ، فَيَدْخُلهَا . وَإِنَّ أَحَدكُمْ لِيَعْمَل بِعَمَلِ أَهْل النَّار إِلَخْ)

قال النووي : .... وَالْمُرَاد بِهَذَا الْحَدِيث أَنَّ هَذَا قَدْ يَقَع فِي نَادِر مِنْ النَّاس ، لَا أَنَّهُ غَالِب فِيهِمْ ، ثُمَّ أَنَّهُ مِنْ لُطْف اللَّه تَعَالَى وَسَعَة رَحْمَته اِنْقِلَاب النَّاس مِنْ الشَّرّ إِلَى الْخَيْر فِي كَثْرَة ، وَأَمَّا اِنْقِلَابهمْ مِنْ الْخَيْر إِلَى الشَّرّ فَفِي غَايَة النُّدُور ، وَنِهَايَة الْقِلَّة ، وَهُوَ نَحْو قَوْله تَعَالَى (إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي وَغَلَبَتْ غَضَبِي) وَيَدْخُل فِي هَذَا مَنْ اِنْقَلَبَ إِلَى عَمَل النَّار بِكُفْرٍ أَوْ مَعْصِيَة ، لَكِنْ يَخْتَلِفَانِ فِي التَّخْلِيد وَعَدَمه ؛ فَالْكَافِر يُخَلَّد فِي النَّار ، وَالْعَاصِي الَّذِي مَاتَ مُوَحِّدًا لَا يُخَلَّد فِيهَا كَمَا سَبَقَ تَقْرِيره . (نووي) .

فائدة : ١٨

قال العلامة ابن باز رحمه الله: من سنته في عباده جل وعلا أن من اتَّقاه واستقام على أمره عن إيمان، وعن إخلاص وصدق، فالله جل وعلا يحسن له الختام؛ فضلًا منه وإحسانًا، وهذا من جنس قوله تعالى (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) .

وقال العلامة محمد العثيمين رحمه الله: كيف يستطيع الإنسان ألَّا يموت إلا وهو مسلم؟ الجواب: يستطيع ذلك، بأن يثابر على العمل الصالح في حياته، والله سبحانه وتعالى أكرم من أن يخذل شخصًا أمضى عمره في طاعة الله، فإذا نشأ الإنسان في طاعة الله، ومرَّن نفسه على الطاعة، فإن الله يشكر له، حتى يحسن له الخاتمة .

فائدة : ١٩

الحذر من أن يغتر الإنسان بعمله الصالح .

فائدة : ٢٠

قرب الجنة والنار من العبد .

وقال ﷺ : (إن الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك) .

فائدة : ٢١

أن الشقاء والسعادة لا يعلمهما أحد إلا الله عز وجل.

فائدة : ٢٢

فيه تنبيه على أن البعث حق؛ لأن مَن قدَر على خلق الإنسان من ماء مهين قادر على إعادته .

الحديث الخامس

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ) متفق عليه .

ولمسلم (مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ) .

==========

(**مَنْ أَحْدَثَ**) أي: ابتدع واخترع شيئاً ليس له أصل.

(**فِي أَمْرِنَا**) أي: ديننا وشريعتنا.

(**مَا لَيْسَ مِنْهُ**) مما ينافيه ويناقضه.

(**فَهُوَ رَدٌّ**) أي: مردود على صاحبه وعليه إثمه.

فائدة : ١

هذا الحديث أصل في رد البدع المستحدثة في دين الإسلام.

قال النووي: هذا الحديث مما ينبغي حفظه، واستعماله في إبطال المنكرات، وإشاعة الاستدلال به.

وقال ابن رجب: وهذا الحديث أصلٌ عظيم من أُصول الإسلام، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها كما أنّ حديث (الأعمال بالنيَّات) ميزان للأعمال في باطِنها، فكما أنَّ كل عمل لا يُراد به وجه الله تعالى، فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كلُّ عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله، فهو مردودٌ على عامله، وكلُّ مَنْ أحدثَ في الدِّين ما لم يأذن به الله ورسوله، فليس مِنَ الدين في شيء.

وقال الشيخ الألباني: هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه ﷺ فإنه صريح في رد إبطال كل البدع والمحدثات.

فائدة : ٢

تعريف البدعة .

البدعة لغة: الشيء المستحدث.

واصطلاحاً: التعبد لله بما ليس عليه النبي ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: البدعة في الدين: هي ما لم يشرعْه الله ورسوله ﷺ وهو ما لم يأمر به أمر إيجاب، ولا استحباب.

وقال الشاطبي رحمه الله تعالى: البدعة: طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعيَّة، يُقصدُ بالسلوك عليها المبالغة في التعبّد لله سبحانه.

وقال الحافظ ابن رجب: والمراد بالبدعة ما أُحدث مما لا أصل له في الشريعة يدلُّ عليه، فأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه، فليس ببدعة شرعاً، وإن كان بدعةً لغةً، فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين، ولم يكن له أصل من الدِّين يرجع إليه فهو ضلالة، والدين بريء منه، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات، أو الأعمال، أو الأقوال الظاهرة والباطنة.

فائدة : ٣

قوله (**ليس عليه أمرنا**) إشارةٌ إلى أنَّ أعمال العاملين كلهم ينبغي أنْ تكون تحتَ أحكام الشريعة، وتكون أحكام الشريعة حاكمةً عليها بأمرها ونهيها، فمن كان عملُه جارياً تحت أحكام الشرع، موافقاً لها، فهو مقبولٌ، ومن كان خارجاً عن ذلك، فهو مردودٌ.

فائدة : ٤

جاءت النصوص الكثيرة في ذم البدع :

أ-قال تعالى (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً).

ب- وقال تعالى (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللّهُ).

وهذا فيه دليل على أن الدين لابد فيه من الإذن، أي أن يرد بكونه من الدين دليل من الله تعالى إما من الكتاب وإما من السنة فما لا دليل عليه فلا يجوز أن يوصف بأنه من الدين، بل هو بدعة ومحدثة .

ج-وقال تعالى (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)، وهذا فيه الفيصل بين المتبع والمبتدع، فمن زعم أنه يحب الله تعالى فإن علامة هذه المحبة إتباع هذا النبي الكريم ﷺ فعلى قدر الإتباع تكون المحبة ، فالمحبة مصداقها وبرهانها الإتباع، فدل ذلك على أن المحدث والمبتدع كاذب في دعواه أنه يحب الله ويحب رسوله ﷺ .

د-وقال – عز وجل – (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ). فالصراط المستقيم هو سبيل الله الذي دعا إليه، وهو السنة، والسبل هي سبل أهل الاختلاف الحائدين عن الصراط وهم أهل البدع، فهذه الآية تشمل النهي عن جميع طرق أهل البدع.

هـ- وحديث الباب (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا ...).

و-حديث جابر قال : قال ﷺ (وكل بدعة ضلالة) رواه مسلم.

ز- حديث العرباض بن سارية -الآتي- (... فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضّوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة) رواه الترمذي.

قال ابن رجب الحنبلي : (كل بدعة ضلالة) من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء وهو أصل عظيم من أصول الدين وهو شبيه بقوله (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ) فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة والدين بريء منه .

فائدة : ٥

شروط العمل الصالح :

لا يقبل أي عمل مما يُتقرّب به إلى الله – عز وجل – إلا بشرطين:

الشرط الأول: إخلاص العمل لله وحده لا شريك له.

لقول النبي ﷺ (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى) متفق عليه.

الشرط الثاني : المتابعة للرسول ﷺ .

لحديث الباب (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد).

فمن أخلص أعماله لله، متّبعاً في ذلك رسول الله ﷺ فهذا الذي عمله مقبول، ومن فقد الإخلاص، والمتابعة لرسول الله ﷺ أو أحدهما فعمله مردود داخل في قوله تعالى (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا) ومن جمع الأمرين فهو داخل في قوله -عز وجل- (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ) وفي قوله تعالى (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ).

فحديث عمر ﷺ (إنما الأعمال بالنيات) ميزان للأعمال الباطنة .

وحديث عائشة رضي الله عنها (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) ميزان للأعمال الظاهرة، فهما حديثان عظيمان يدخل فيهما الدين كلّه: أصوله، وفروعه، ظاهره وباطنه، أقواله، وأفعاله.

فائدة : ٦

خطر البدعة على الفرد والمجتمع :

أولاً: عمله عليه مردود وهو مأزور غير مأجور.

لحديث الباب.

ثانياً: البدعة مانعة من شفاعة المصطفى ﷺ، ولذا فالمبتدع لا يرد حوض النبي ﷺ ومحروم من شفاعته.

فعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (أنا فرطكم على الحوض وليختلجن رجال دوني فأقول يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك) متفق عليه.

وهذا فيه بيان شيء من عقوبة الإحداث في الدين وهو أنه يذاد عن الشرب من الحوض والعياذ بالله.

ثالثاً: صاحب البدعة ملعون على لسان الشريعة .

لقوله ﷺ (من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) متفق عليه.

رابعاً: المبتدع عليه إثم من عمل ببدعته إلى يوم القيامة.

فإن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

خامساً: صاحب البدعة لا يزداد من الله إلا بعداً.

وهذا يدل عليه حديث الخوارج مع ما فيهم من تعبد واجتهاد.

سادساً: البدعة رافعة للسنن ومميتة لها.

وقد قيل: من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام.

سابعاً: البدعة سبب الهلاك .

فإذا كان شؤم المعصية على الفرد والمجتمع كبير، كما في غزوة أحد وما حصل من الرماة، وكذلك ما حصل للنبي ﷺ عندما خرج ليخبرنا بليلة القدر فوجد رجلين يتلاحيان فنُسيها، فكيف بشؤم البدعة وهي أشد منها رتبة ودرجة.

ثامناً: البدعة بريد الكفر.

لأن المبتدع لا يقف عند حد.

تاسعاً: المبتدع متهم للنبي ﷺ .

كما قال مالك إمام دار الهجرة: من ابتدع في الإسلام بدعة فقد اتهم النبي ﷺ بالخيانة وكتمان شيء من الحق.

عاشراً: البدعة تفتح باب الخلاف الذي لم يُبن على دليل بل على الأهواء، وتلقي العداوة والبغضاء بين أهل الإسلام، وما ذلك إلا لأنها تقتضي التفرق شيعاً، وقد أشار القرآن إلى ذلك، كما في قوله تعالى (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ).

الحادي عشر: المبتدع معاند للشرع، ومشاق له، وقد نزل نفسه منزلة المضاهي للشارع؛ لأن الشارع وضع الشرائع، وألزم الخلق الجري على سَنَنَها، وصار هو المنفرد بذلك.

فائدة : ٧

البدعة تستلزم تكذيب القرآن، لأن الله يقول: (اليوم أكملت لكم دينكم) .

فهذه الآية الكريمة تدل على تمام الشريعة وكمالها، وكفايتها لكل ما يحتاجه الخلق.

قال ابن كثير: هذه أكبر نعم الله على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره.

وتستلزم: القدح في الشريعة وأنها لم تكتمل.

وتستلزم: القدح في المسلمين الذين لم يأتوا بها، فكل من سبق هذه البدع دينهم ناقص؟؟ وهذا خطير!!.

وتستلزم: القدح في رسول الله ﷺ لأن هذه البدعة إما أن يكون الرسول لم يعلم بها وحينئذٍ يكون جاهلاً، وإما أن يكون قد علم بها ولكن كتمها، فيكون كاتماً للرسالة أو بعضها.

فائدة : ٨

من أقوال السلف:

قال ابن مسعود: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم، وكل بدعة ضلالة. رواه أبو خيثمة.

وقال: اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة. رواه ابن المبارك في الزهد

وقال ابن مسعود ﷺ : إياكم والتبدع والتنطع والتعمق، وعليكم بالعتيق. رواه الدارمي

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لا تجالس أهل الأهواء فإن مجالستهم ممرضة للقلوب. إسناده صحيح.

و قال رجل لابن عباس أوصني، قال: عليك بتقوى الله، والاستقامة، واتبع ولا تبتدع.

وكان أبو الأحوص يقول لنفسه: يا سلاّم نَمْ على سنة، خير من أن تقوم على بدعة.

وعن الحسن البصري قال: لا تجالس صاحب هوى فيقذف في قلبك ما تتبعه عليك فتهلك أو تخالفه فيمرض قلبك.

وقال رجل من أهل الأهواء لأيوب السختياني: يا أبا بكر أسألك عن كلمة، فولى وهو يقول بيده ولا نصف كلمة.

وقال إبراهيم النخعي: لو أن أصحاب محمد مسحوا على ظُفُر، لما غسلته التماس الفضل في اتباعهم. رواه الدارمي

وقال ابن كثير في تفسيره: ومن لم تسعه طريقة الرسول ﷺ وطريقة المؤمنين السابقين فلا وسّع الله عليه.

وقال قتادة: إن الرجل إذا ابتدع بدعة ينبغي لها أن تُذكر حتى تُحذر.

قال ابن الماجشون: سمعت مالكاً يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) فما لم يكن يومئذٍ ديناً، فلا يكون اليوم ديناً ".

وقال الإمام أبو عثمان النيسابوري: من جلس إلي صاحب بدعة حُرِمَ الحكمة، قال: من أمَّر السنة على نفسه قولًا وعملًا نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولًا وعملًا نطق البدعة.

وقال يونس بن عبيد: لا تجالس سلطاناً ولا صاحب بدعة .

وقال سفيان: المسلمون كلهم عندنا على حالة حسنة إلا رجلين ، صاحب بدعة أو صاحب سلطان.

وقال يحيى بن أبي كثير: إذا لقيت صاحب بدعة في طريق فخذ في غيره.

وقال ابن المبارك: ليكن مجلسك مع المساكين، وإياك أن تجالس صاحب بدعة.

وقال الفضيل بن عياض: لا تجلس مع صاحب بدعة فإني أخاف أن تنزل عليك اللعنة.

وقال الفضيل أيضاً: من أتاه رجل فشاوره فدله على مبتدع فقد غش الإسلام.

وقال رحمه الله تعالى: من جلس مع صاحب بدعة فاحذروه، ومن جلس مع صاحب البدعة لم يعط الحكمة، وأحب أن يكون بيني وبين صاحب البدعة حصن من حديد.

وقال الحسن البصري ﷺ : لا تجالس صاحب بدعة فيمرض قلبك.

وقال سفيان الثوري: من سمع بدعة فلا يحكها لجلسائه لا يلقيها في قلوبهم.

وروى ابن بطة عن أيوب أنه قال: لست ترد عليهم بشيء أشد من السكوت.

وقال الإمام البربهاري رحمه الله: إذا ظهر لك من إنسان شيء من البدع: فاحذره؛ فإن الذي أخفى عنك أكثر مما أظهر.

وقال الإمام ابن سيرين رحمه الله تعالى: أسرع الناس ردة أهل الأهواء.

قال ابن تيمية رحمه الله: ومثل التحذير من أهل البدع أمر واجب باتفاق المسلمين، بل هو من جنس الجهاد في سبيل الله.

وقال رحمه الله: البدع هي مبادئ الكفر، ومظانّ الكفر، كما أنّ السُّنن المشروعة هي مظاهر الإيمان.

قال الأوزاعي رحمه الله: لا تمكنوا صاحب بدعة من جدل، فيورث قلوبكم من فتنته ارتياباً.

وقال الفضيل بن عياض: الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، ولا يمكن أن يكون صاحب سنّة يمالئ صاحب بدعة إلا من النفاق.

وقال الإمام البغوي رحمه الله: وقد مضت الصحابة والتابعون، وأتباعهم، وعلماء السنن على هذا مجمعين متفقين على معاداة أهل البدع ومهاجرتهم. [شرح السنّة، للبغوي: ١/ ٢٢٧].

وقال الشاطبي: إن فرقة النجاة، وهم أهل السنة، مأمورون بعداوة أهل البدع، والتشريد بهم، و التنكيل بمن انحاش إلى جهتهم، ونحن مأمورون بمعاداتهم، وهم مأمورون بموالاتنا والرجوع إلى الجماعة. [الاعتصام، للشاطبي: ١/ ١٢٠].

قال ابن قدامة: كان السلف ينهون عن مجالسة أهل البدع، و النظر في كتبهم.

وعن مجاهد قال: كنت مع ابن عمر فثوّب رجل في الظهر أو العصر، فقال: اخرج بنا فإن هذه بدعة. رواه أبو داود

وعن نافع أن رجلاً عطس إلى جنب ابن عمر فقال: الحمد لله والسلام على رسول الله، فقال ابن عمر: وأنا أقول: الحمد لله والسلام على رسول الله، وليس هكذا علمنا رسول الله ﷺ، علمنا أن نقول: الحمد لله رب العالمين). رواه الترمذي والحاكم

فائدة : ٩

أن ديننا كامل فلا يحتاج إلى من يكمله.

قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم ...).

وعن أبي ذر قال (تركنا رسول الله ﷺ ما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا فيه علماً، قال ﷺ: ما بقي شيء يقرب إلى الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم) رواه الطبراني.

قال ابن الماجشون: سمعت مالكاً يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمداً خان الرسالة، لأن الله يقول: اليوم أكملت لكم دينكم، فما لم يكن يؤمئذ ديناً، فلا يكون اليوم ديناً.

فائدة : ١٠

وجوب معرفة البدع للتحذير منها والتنفير.

قال الشاعر: عرفت الشر لا للشر ... لكن لتوقيه

ومن لا يعرف الخير ... من الشر يقع فيه

فائدة : ١١

أن البدع أحب إلى إبليس من المعصية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن أهل البدع شر من أهل المعاصي الشهوانية بالسنة والإجماع.

فائدة : ١٢

الأصل في العبادات المنع حتى يرد الدليل.

فالأصل في باب العبادات هو اتباع الرسول (بدون زيادة ولا نقصان) فليس لأحد مهما كان أن يزيد في العبادة شيئاً ولا أن ينقص منها شيئاً .

وقد أمر الرسول ﷺ بالالتزام بالعبادة كما فعلها هو عليه الصلاة والسلام .

قال ﷺ (صلوا كما رأيتموني أصلي) .

وقال ﷺ (خذوا عني مناسككم) .

الحديث السادس

عَنِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ – رَضي الله عنهُما – قال : سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ (إنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ وإنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ ، وبَينَهُما أُمُورٌ مُشتَبِهاتٌ ، لا يَعْلَمُهنّ كثيرٌ مِن النَّاسِ ، فَمَن اتَّقى الشُّبهاتِ استبرأ لِدينِهِ وعِرضِه ، ومَنْ وَقَعَ في الشُّبُهاتِ وَقَعَ في الحَرَامِ ، كالرَّاعي يَرعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أنْ يَرتَعَ فيهِ ، ألا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، ألا وإنَّ حِمَى اللهِ محارِمُهُ ، ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضغَةً إذا صلَحَتْ صلَحَ الجَسَدُ كلُّه ، وإذَا فَسَدَت فسَدَ الجَسَدُ كلُّه ، ألا وهِيَ القَلبُ) رواهُ البُخاريُّ ومُسلم .

==========

(**عَنِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ**) بن سعد بن ثعلبة الأنصاريّ الخزرجيّ الصحابيّ ابن الصحابيّ –رضي الله عنهما–، سكن الشام، ثم ولي إمرة الكوفة، ثم قُتل بحمص سنة (٦٥) وله (٦٤) سنةً

(**بيّن**) ظاهر.

(مشتبهات) جمع مشتبه، وهي المشكل لما فيه من عدم الوضوح في الحل أو الحرمة.

(**لا يَعْلَمُهنّ كثيرٌ مِن النَّاسِ**) أي: لا يعلم حكمهنّ، وجاء واضحًا في رواية الترمذيّ بلفظ (لا يدري كثير من الناس أمن الحلال هي، أم من الحرام؟) ومفهوم قوله (كثيرٌ) أن معرفة حكمها ممكن، لكن للقليل من الناس، وهم المجتهدون، فالشبهات على هذا في حقّ غيرهم، وقد تقع لهم حيث لا يظهر لهم ترجيح أحد الدليلين، قاله في "الفتح" .

وقال النوويّ رحمه الله: معنى قوله (لا يعلمهنّ كثير من الناس) أنها ليست بواضحة الحل، ولا الحرمة، فلهذا لا يعرفها كثير من الناس، ولا يعلمون حكمها، وأما العلماء فيعرفون حكمها بنصّ، أو قياس، أو استصحاب، أو غير ذلك .

(**فَمَن اتَّقى الشُّبهاتِ**) أي : ابتعد عنها .

(**استبرأ لِدينِهِ**) أي: بَرَأَ دينُهُ من النقص .

(**وعِرضِه**) من الطعن فيه ، لأن من لم يُعْرَف باجتناب الشبهات لم يَسْلَم لقول من يَطعن فيه .

(**ومَنْ وَقَعَ في الشُّبُهاتِ وَقَعَ في الحَرَامِ**) سيأتي معناها إن شاء الله .

(**ألا وإنَّ حِمَى اللهِ محارِمُهُ**) المراد بالمحارم فعل المنهيّ المحرّم، أو ترك المأمور الواجب .

(**ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضغَةً**) أي: قَدْرَ ما يُمْضَغ، وعَبّر بها هنا عن مقدار القلب في الرؤية، وسُمِّي القلبُ قلبًا؛ لتقلبه في الأمور، أو لأنه خالص ما في البدن، وخالص كل شيء قلبه، أو لأنه وُضِع في الجسد مقلوبًا، قاله في "الفتح".

وقال القرطبيّ رحمه الله: المضغة: القطعة من اللحم، وهي قدر ما يَمضغه الماضغ، يعني بذلك صغير جرمها، وعظيم قدرها.

(**ألا وهِيَ القَلبُ**) وخَصَّ القلبَ بذلك؛ لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قدر.

فائدة : ١

منزلة هذا الحديث .

قال النووي : أَجْمَعَ الْعُلَمَاء عَلَى عِظَم وَقْع هَذَا الْحَدِيث ، وَكَثْرَة فَوَائِده ، وَأَنَّهُ أَحَد الْأَحَادِيث الَّتِي عَلَيْهَا مَدَار الْإِسْلَام . قَالَ جَمَاعَة : هُوَ ثُلُث الْإِسْلَام ، وَأَنَّ الْإِسْلَام يَدُور عَلَيْهِ ، وَعَلَى حَدِيث : " الْأَعْمَال بِالنِّيَّةِ " ، وَحَدِيث : " مِنْ حُسْن إِسْلَام الْمَرْء تَرْكه مَا لَا يَعْنِيه " .

وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ السِّخْتِيَانِيّ : يَدُور عَلَى أَرْبَعَة أَحَادِيث : هَذِهِ الثَّلَاثَة ، وَحَدِيث : "لَا يُؤْمِن أَحَدكُمْ حَتَّى يُحِبّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبّ لِنَفْسِهِ " وَقِيلَ : حَدِيث" اِزْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبّك اللَّه ، وَازْهَدْ مَا فِي أَيْدِي النَّاس يُحِبّك النَّاس " قَالَ الْعَلَاء : وَسَبَب عَظْم مَوْقِعه أَنَّهُ ﷺ نَبَّهَ فِيهِ عَلَى إِصْلَاح الْمَطْعَم وَالْمَشْرَب وَالْمَلْبَس وَغَيْرهَا ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي تَرْك الْمُشْتَبِهَات ، فَإِنَّهُ سَبَب لِحِمَايَةِ دِينه وَعِرْضه ، وَحَذَرًا مِنْ مُوَاقَعَة الشُّبُهَات . (نووي) .

وقال ابن حجر : وقد عظّم العلماء أمر هذا الحديث، فعَدُّوه رابع أربعة، تدور عليها الأحكام، كما نُقل عن أبي داود .

فائدة : ٢

قسم النبي ﷺ الأمور إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: حلال واضح لا يخفى حله، كأكل الخبز، والمشي.

القسم الثاني: حرام واضح، كالخمر والزنا والغيبة.

القسم الثالث: مشتبه: يعني ليست بواضحة الحل أو الحرمة.

فهذه لا يعرفها كثير من الناس، أما العلماء فيعرفون حكمها بنص أو قياس.

وقال النووي : مَعْنَاهُ : أَنَّ الْأَشْيَاء ثَلَاثَة أَقْسَام : حَلَال بَيِّن وَاضِح لَا يَخْفَى حِلّه ، كَالْخُبْزِ وَالْفَوَاكِه وَالزَّيْت وَالْعَسَل وَالسَّمْن وَلَبَن مَأْكُول اللَّحْم وَبَيْضه وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ الْمَطْعُومَات ، وَكَذَلِكَ الْكَلَام وَالنَّظَر وَالْمَشْي وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ التَّصَرُّفَات ، فهيَ حَلَال بَيِّن وَاضِح لَا شَكّ فِي حِلّه .

وَأَمَّا الْحَرَام الْبَيِّن فَكَالْخَمْرِ وَالْخِنْزِير وَالْمَيْتَة وَالْبَوْل وَالدَّم الْمَسْفُوح ، وَكَذَلِكَ الزِّنَا وَالْكَذِب وَالْغِيبَة وَالنَّمِيمَة وَالنَّظَر إِلَى الْأَجْنَبِيَّة وَأَشْبَاه ذَلِكَ .

وَأَمَّا الْمُشْتَبِهَات فَمَعْنَاهُ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِوَاضِحَةِ الْحِلّ وَلَا الْحُرْمَة ، فَلِهَذَا لَا يَعْرِفهَا كَثِير مِنْ النَّاس ، وَلَا يَعْلَمُونَ حُكْمهَا ، وَأَمَّا الْعُلَمَاء فَيَعْرِفُونَ حُكْمهَا بِنَصٍّ أَوْ قِيَاس أَوْ اِسْتِصْحَاب أَوْ غَيْر ذَلِكَ . (نووي) .

وقال القرطبيّ : يعني أن كل واحد منهما مُبَيَّن بأدلته في كتاب الله تعالى، وسنّة رسوله ﷺ تأصيلًا وتفصيلًا، فمن وقف على ما في الكتاب والسُّنة من ذلك وجد فيهما أمورًا جلية التحليل، وأمورًا جلية التحريم، وأمورًا مترددة بين التحليل والتحريم، وهي التي تتعارض فيها الأدلة، فهي المتشابهات. (المفهم) .

وقال ابن رجب: معنى الحديث: أن الحلال المحض بيّن لا اشتباه فيه، وكذلك الحرام المحض، ولكن بين الأمرين أمور تشتبه على كثير من الناس، هل هي من الحلال أم من الحرام؟ أما الراسخون في العلم فلا تشتبه عليهم ذلك، ويعلمون من أيّ القسمين هي. فقوله ﷺ في المشتبهات (لا يعلمهن كثير من الناس) دليل على أن من الناس من يعلمها، وإنما هي مشتبهة على من لم يعرفها، وليست مشتبهة في نفس الأمر.

فائدة : ٣

الحديث دليل على أن من اشتبه عليه أمر من الأمور فالأفضل والأكمل أن يتقي هذا الأمر المشتبه فيه.

لقوله (فَمَن اتَّقى الشُّبهاتِ استبرأ لِدينِهِ وعِرضِه) .

لأن ذلك أسلم لدينه وعرضه.

ومعنى (استبرأ) أي: طلب البراءة لدينه من النقص، ولعرضه من الشيْن.

قال ابن رجب رحمه الله: معنى (استبرأ) طلب البراءة لدينه وعرضه مِنَ النَّقْص والشَّين، والعِرْضُ: هو موضعُ المدح والذمِّ من الإنسان، وما يحصل له بذكره بالجميل مدحٌ، وبذكره بالقبيح قدحٌ، وقد يكون ذلك تارةً في نفس الإنسان، وتارة في سلفه، أو في أهله، فمن اتَّقى الأمور المشتبهة واجتنبها، فقد حَصَّنَ عِرْضَهُ مِنَ القَدح والشَّين الداخل على من لا يجتنبها، وفي هذا دليل على أنَّ من ارتكب الشُّبهات، فقد عرَّض نفسه للقدح فيه والطَّعن، كما قال بعض السَّلف: من عرَّض نفسه للتُّهم، فلا يلومنَّ من أساء به الظنَّ.

وقال القرطبيّ رحمه الله: قوله (فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه) أي: من ترك ما يَشتبه عليه سَلِم دينه مما يفسده، أو ينقصه، وعرضه مما يَشينه، ويَعيبه، فيسلم من عقاب الله وذمِّه، ويدخل في زمرة المتقين الفائزين بثناء الله تعالى وثوابه .

وقال النوويّ: أي حَصَّل البراءة لدينه من الذّمّ الشرعيّ، وصان عِرضه من كلام الطاعن .

فائدة : ٤

الحديث قسّم الناس في الأمور المشتبهة إلى قسمين:

الأول: من يتقي هذه الشبهات، لاشتباهها عليه، فهذا قد استبرأ لدينه وعرضه.

والثاني: من يقع في الشبهات مع كونها مشتبهة عنده، فهذا قد أخبر النبي ﷺ أنه قد وقع في الحرام.

لقوله (ومَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ) .

فائدة : ٥

الحديث دليل على أن من ارتكب الشبهات، فقد عرضه نفسه للقدح فيه والطعن.

كما قال بعض السلف: من عرّض نفسه للتهم، فلا يلومن من أساء الظن به.

وعند الترمذي (فمن تركها، استبراءً لدينه وعرضه، فقد سلِم) والمعنى: أنه يتركها بهذا القصد – وهو براءة دينه وعرضه من النقص – لا لغرض آخر فاسد من رياء ونحوه.

فائدة : ٦

الحديث دليل على أن طلب البراءة للعرض ممدوح كطلب البراءة للدين.

وقد جاء في رواية في الصحيحين في هذا الحديث (فمن ترك ما يشتبه عليه من الإثم، كان لما استبان أترك).

يعني: أن من ترك الإثم مع اشتباهه عليه، وعدم تحققه، فهو أولى بتركه إذا استبان له أنه إثم.

فائدة : ٧

قوله ﷺ (**ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام**) اختلف في معناه على قولين :

الأول: أن يكون ارتكابه للشبهة مع اعتقاده أنها شبهة ذريعة إلى ارتكابه الحرام الذي يعتقد أنه حرام بالتدرج والتسامح.

ويعضد هذا المعنى ما روي في الصحيحين (ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أو شك أن يواقع ما استبان).

والمعنى الثاني: أن من أقدم على ما هو مشتبه عنده لا يدري أهو حلال أو حرام، فإنه لا يأمن أن يكون حراماً في نفس الأمر، فيصادف الحرام وهو لا يدري أنه حرام.

ويعضد هذا ما في رواية ابن عمر للحديث، وفيه: (فمن اتقاها – أي المشتبهات – كان أنزه لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات أوشك أن يقع في الحرام).

قال القرطبيّ رحمه الله: قوله (وقع في الحرام) وذلك يكون بوجهين:

أحدهما : أن من لم يتق الله تعالى، وتجرَّأ على الشبهات، أَفْضَتْ به إلى المحرمات بطريق اعتياد الجرأة، والتساهل في أمرها، فيحمله ذلك على الجرأة على الحرام المحض .

ولهذا قال بعض المتقين: الصغيرة تجر إلى الكبيرة، والكبيرة تجر إلى الكفر، ولذلك قال ﷺ : المعاصي بريد الكفر ، وهو معنى قوله تعالى (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

وثانيهما : أن من أكثر من مواقعة الشبهات أظلم عليه قلبه، لفقدان نور العلم، ونور الورع، فيقع في الحرام، ولا يشعر به، وإلى هذا النور الإشارة بقوله تعالى (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) ، وإلى ذلك الإظلام الإشارة بقوله: (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) .

فائدة : ٨

شبه النبي ﷺ الذي يقع في الشبهات بالراعي يرعى بغنمه وإبله حول الحمى، أي حول المكان المحمي، يوشك ويقرب أن يقع فيه، لأن البهائم إذا رأت الأرض المحمية مخضرة مملوءة من العشب فسوف تدخل هذه القطعة المحمية، كذلك المشتبهات إذا حام حولها العبد فإنه يصعب عليه أن يمنع نفسه عنها.

قال القرطبيّ رحمه الله : هذا مَثَلٌ ضربه النبيّ ﷺ لمحارم الله تعالى، وأصله: أن ملوك العرب كانت تحمي مراعي لمواشيها الخاصّة بها، وتُحَرِّجُ بالتوعد بالعقوبة على من قربها، فالخائف من عقوبة السلطان يَبْعُد بماشيته من ذلك الحمى؛ لأنه إن قرب منه فالغالب الوقوع فيه، وإن أكثر الحذر؛ إذ قد تنفرد الفاذّة، وتشذّ الشاذّة، ولا تنضبط، فالحذر أن يجعل بينه وبين ذلك الحمى مسافة بحيث يَأْمَن فيها من وقوع الشاذة والفاذّة، وكذلك محارم الله تعالى، لا ينبغي أن يحوم حولها مخافة الوقوع فيها على الطريقتين المتقدمتين.

وقال ابن حجر : قوله (كراعٍ يرعى ... إلخ) جملة مستأنفة، وردت على سبيل التمثيل؛ للتنبيه بالشاهد على الغائب، والحمى: الْمَحْمِيّ، أُطلق المصدر على اسم المفعول، وفي اختصاص التمثيل بذلك نكتة، وهي أن ملوك العرب كانوا يَحمون لمراعي مواشيهم أماكن مختصة يتوعدون من يرعى فيها بغير إذنهم بالعقوبة الشديدة، فمثّل لهم النبيّ ﷺ بما هو مشهور عندهم، فالخائف من العقوبة المراقب لرضا الملك يَبْعُد عن ذلك الحمى؛ خشية أن تقع مواشيه في شيء منه، فبُعْدُهُ أسلم له، ولو اشتدّ حَذَرُهُ، وغير الخائف المراقب يقرب منه، وَيرْعَى من جوانبه فلا يأمن أن تنفرد الفاذّة، فتقع فيه بغير اختياره، أو يمحل المكان الذي هو فيه، ويقع الْخِصب في الحمى، فلا يملك نفسه أن يقع فيه، فالله سبحانه وتعالي هو الملك حقًّا، وحِماه محارمه.

فائدة : ٩

الحديث دليل على أن من أسباب النجاة من الوقوع في الحرام : الورع والابتعاد عن الشبهات.

فائدة : ١٠

فضائل الورع .

أولاً: أنه سبب لاستبراء العرض والدين.

كما في حديث الباب (من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه).

ثانياً: أنه خير خصال الدين:

قال ﷺ (وخير دينكم الورع) رواه الحاكم.

ثالثاً: من علامات العبادة.

قال ﷺ (كن ورعاً تكن أعبد الناس) رواه الترمذي وفيه ضعف.

رابعاً: أنه من هدي النبي ﷺ وخلقه.

عن أنس: (أن النبي ﷺ وجد تمرة في الطريق فقال: لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها) متفق عليه.

خامساً: أنه سبب للنجاة.

عن الحسن بنِ علي قَالَ: حَفظْتُ مِنْ رَسُول الله ﷺ (دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُكَ؛ فإِنَّ الصِّدقَ طُمَأنِينَةٌ، وَالكَذِبَ رِيبَةٌ) رواه الترمذي .

فائدة : ١١

من أقوال السلف في الورع:

قال الحسن: ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام.

وقال حسان بن أبي سنان: ما من شيء أهون من الورع، إذا رابك شيء فدعه.

وقال عمر: كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام.

وقال العسكري: لو تأمل الحذاق في هذا الحديث لتيقنوا أنه قد استوعب كل ما قيل في تجنب الشبهات.

وقال شيخ الإسلام: الورع من قواعد الدين.

وقال ابن المبارك: ترك فلس من حرام أفضل من مائة ألف فلس أتصدق بها.

وقال الضحاك: لقد أدركت أصحابي وما يتعلمون إلا الورع.

وقال أبو سليمان الداراني: الورع أول الزهد، كما أن القناعة أول الرضا.

وقال إبراهيم بن أدهم: ما أدرك من أدرك إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه.

وكان الإمام الورع سعيد بن المسيب لا يقبل من أحد شيئاً لا ديناراً ولا درهماً ولا شيئاً.

قال أبو الدرداء: تمام التقوى أن يتقي العبد ربه، حتى يتقيه من مثقال ذرة.

وقال الحسن البصري: ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الوقوع بالحرام.

وقال الثوري: إنما سموا متقين، لأنهم اتقوا ما لا يتقى.

فائدة : ١٢

حكمة الله في ذكر المشتبهات حتى يتبين من كان حريصاً على طلب العلم ومن ليس بحريص.

فائدة : ١٣

أنه لا يمكن أن يكون في الشريعة ما لا يعلمه الناس كلهم.

فائدة : ١٤

حسن تعليم النبي ﷺ بضرب الأمثال المحسوسة ليتبين بها المعاني المعقولة.

فائدة : ١٥

قوله (**ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضغَةً إذا صلَحَتْ .... ، ألا وهِيَ القَلبُ**)

فيه دليل على أنه يجب على الإنسان أن يهتم بقلبه، لأن مدار الصلاح والفساد عليه، فإذا صلح صلح سائر الجسد وإذا فسد فسد سائر الجسد.

قال ابن رجب رحمه الله: فيه إشارةٌ إلى أنَّ صلاحَ حركاتِ العبدِ بجوارحه، واجتنابه للمحرَّمات واتِّقاءه للشُّبهات بحسب صلاحِ حركةِ قلبِه. ... فإنْ كان قلبُه سليمًا، ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يُحبه الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه، صلحت حركاتُ الجوارح كلّها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرَّمات كلها، وتَوَقٍّ للشبهات حذرًا مِنَ الوقوعِ في المحرّمات.

وإنْ كان القلبُ فاسدًا، قدِ استولى عليه اتباعُ هواه، وطلب ما يحبُّه، ولو كرهه الله، فسدت حركاتُ الجوارح كلها، وانبعثت إلى كلِّ المعاصي والمشتبهات بحسب اتِّباع هوى القلب.

ولهذا يقال: القلبُ مَلِكُ الأعضاء، وبقيَّةُ الأعضاءِ جنودُه، وهم مع هذا جنودٌ طائعون له، منبعثون في طاعته، وتنفيذ أوامره، لا يخالفونه في شيءٍ من ذلك، فإنْ كان الملكُ صالحًا كانت هذه الجنود صالحة، وإنْ كان فاسدًا كانت جنودُه بهذه المثابَةِ فاسدةً،

وقال ابن حجر: وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب، والحث على صلاحه، والإشارة إلى أن لطيب الكسب أثراً فيه.

وصلاح القلب يكون باستقامة على طاعة الله.

قال ابن القيم: استقامة القلب بشيئين:

أحدهما: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب، فإذا تعارض حب الله وحب غيره، سبق حب الله حب ما سواه، وما أسهل هذا بالدعوى، وما أصعبه بالفعل.

الثانية: تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر والناهي.

فعلامة تعظيم الأوامر: رعاية أوقاتها وحدودها، والتفتيش على أركانها وواجباتها وكمالها، والحرص على تحسينها وفعلها في أوقاتها والمسارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حق من حقوقها.

وعلامات تعظيم المناهي: الحرص على التباعد من مظانها وأسبابها وما يدعو إليها، ومجانبة كل وسيلة تقرب منها.

وأن يغضب لله عز وجل إذا انتهكت محارمه، وأن يجد في قلبه حزناً وكسرة إذا عصى الله في أرضه.

وأن لا يسترسل مع الرخصة إلى حد يكون صاحبه جافياً غير مستقيم على المنهج الوسط. [الوابل الصيب].

فائدة : ١٦

يجب دعاء الله بإصلاح قلبه وتثبيته.

فقد كان ﷺ يدعو: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك.

وكان قسم النبي ﷺ: لا، ومقلب القلوب.

وينبغي التحذير من التساهل في أمر القلب.

قال ﷺ (إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء) رواه مسلم.

ولا ينفع يوم القيامة إلا القلب السليم.

قال تعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم).

القلب السليم: هو السالم من الشرك والبدعة والآفات والمكروهات، وليس فيه إلا محبة الله وخشيته.

وينبغي الدعاء بسلامة القلب.

فقد كان ﷺ يقول (اللهم إني أسألك قلباً سليماً ..) رواه أحمد.

وأهم سبب لحياة القلب : الاستجابة لله ولرسوله.

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه).

ومن أسباب لين القلب :

ذكر الله.

قال تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب).

والعطف على المسكين.

فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو قسوة قلبه؟ فقال له الرسول ﷺ (إذا أحببت أن يلين قلبك فامسح راس اليتيم وأطعم المسكين) رواه أحمد.

ومن أسباب رقة القلب : زيارة المقابر.

قال ﷺ (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة، وترق القلب) رواه أحمد.

وينبغي الحذر من قسوة القلب.

قال تعالى: (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله).

قال بعض السلف: خصلتنا تقسيان القلب: كثرة الكلام، وكثرة الأكل.

وقال بعضهم: البدن إذا عري رق، وكذلك القلب إذا قلت خطاياه أسرعت دمعته.

قال ابن القيم: مفسدات القلب: كثرة النوم، والتمني، والتعلق بغير الله، والشبع، والمنام.

وقال بعض العلماء: صلاح القلب بخمسة أشياء: قراءة القرآن بتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع بالسحر، ومجالسة الصالحين، وأكل الحلال.

فائدة : ١٧

فضل العلم والرسوخ فيه.

فائدة : ١٨

أن المحارم هي حمى الله في الأرض.

فائدة : ١٩

وفيه الإشارة إلى المحافظة على أمور الدين ومراعاة المروءة.

فائدة : ٢٠

أن المشبهات والدخول فيها يكون لها تأثيراً على القلوب.

فائدة : ٢١

وفيه دليل لقاعدة سد الذرائع.

الحديث السابع

عنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (الدِّينُ النَّصِيحَةُ) قُلْنَا لِمَنْ قَال : (لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ) رواه مسلم .

==========

(**عنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ**) هو: تميم بن أوس بن خارجة الداريّ، أبو رُقيّة الصحابيّ المشهور، سكن بيت المقدس بعد قتل عثمان ﷺ، قيل: مات ﷺ سنة (٤٠) .

قال النووي : وَهَذَا الْحَدِيث مِنْ أَفْرَاد مُسْلِم ، وَلَيْسَ لِتَمِيمٍ الدَّارِيّ فِي صَحِيح الْبُخَارِيّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْءٌ ، وَلَا لَهُ فِي مُسْلِمٍ عَنْهُ غَيْر هَذَا الْحَدِيث .

(**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**) قال ابن حجر : يحتمل أن يحمل على المبالغة، أي: معظم الدين النصيحة، كما قيل: "الحج عرفة"، ويحتمل أن يحمل على ظاهره؛ لأن كل عمل لم يرد به عامله الإخلاص، فليس من الدين.

(**أئمة المسلمين**) حكامهم.

(**عامتهم**) سائر المسلمين غير الحكام.

فائدة : ١

أهمية هذا الحديث .

قال النووي: هذا حديث عظيم الشأن وعليه مدار الإسلام، وأما ما قاله جماعات من العلماء: أنه أحد أرباع الإسلام – أي أحد الأحاديث الأربعة التي تجمع أمور الإسلام – ، فليس كما قالوه، بل المدار على هذا وحده .

فائدة : ٢

تعريف النصيحة .

قيل: هي كلمة يعبر بها عن إرادة الخير للمنصوح له.

وقيل: قيام العبد بما لغيره من الحقوق، وهذا أصوب.

فالنصيحة لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِم هي: القيام بحقوقهم.

وهي باعتبار منفعتها نوعان:

أحدهما: ما منفعتها مقصودة في الأصل للناصح، وهي النصيحة لله ولرسوله ﷺ ولكتاب الله عز وجل.

والآخر: ما منفعتها مقصودة في الأصل للناصح والمنصوح معاً، وهي النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم.

فائدة : ٣

كيفية النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

فالنصيحة لله: تكون بالإيمان به، ونفي الشريك عنه، وترك الإلحاد في صفاته، ووصفه بصفات الكمال والجلال كلها، وتنزيهه سبحانه وتعالى عن جميع النقائص، والقيام بطاعته، واجتناب معاصيه.

والنصيحة لكتابه: بقراءته وتدبره وحفظه والعمل به.

والنصيحة لرسوله: تكون بتصديق رسالته، والإيمان بجميع ما جاء به، وطاعته في أمره ونهيه، ونصرته حياً وميتاً، ومعاداة من عاداه، وموالاة من والاه، وإعظام حقه وتوقيره، وإحياء طريقته وسنته، وبث دعوته ونشر شريعته.

والنصيحة لأئمة المسلمين: تكون بمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه، وأمرهم به وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه، وترك الخروج عليهم، وتألف قلوب الناس لطاعتهم، وأن يدعى لهم بالصلاح.

والنصيحة لعامة المسلمين: تكون بإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وكف الأذى عنهم، وتعليم ما يجهلونه من دينهم، ويعينهم عليه بالقول والفعل، وستر عوراتهم، وسد خلاتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص، والشفقة عليهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه.

فائدة : ٤

الحديث دليل على فضل النصيحة وعظم منزلتها، وللنصيحة فضائل:

أولاً: أنها مهمة الرسل.

قال تعالى إخباراً عن نوح (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ).

ثانياً: أن منزلتها عظيمة.

كما في حديث الباب.

ثالثاً: أنها من علامات كمال الإيمان.

كما قال ﷺ (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

رابعاً: أنها من حقوق المسلم على أخيه المسلم.

قال ﷺ (للمؤمن على المؤمن ست خصال: ... وينصح له إذا غاب أو شهد).

فائدة : ٥

ينبغي أن تسود النصيحة بين المسلمين، فإنها من أعظم مكملات الإيمان.

سئل ابن المبارك: أي الأعمال أفضل؟ قال: النصح لله.

وقال الفضيل: المؤمن يستر وينصح والفاجر يهتك ويعير.

وقال أيضاً: ما أدرك عندنا من أدرك بكثرة الصلاة والصيام، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للأمة.

قال أبو بكر المزني: ما فاق أبو بكر أصحاب رسول الله بصوم ولا بصلاة، ولكن بشيء كان في قلبه.

قال ابن علية: الذي كان في قلبه الحب لله عز وجل والنصيحة في خلقه.

وقال أبو الدرداء: إن شئتم لأنصحن لكم: إن أحب عباد الله إلى الله، الذين يحبّبون الله تعالى إلى عباده ويعملون في الأرض نصحاً.

وقال حكيم: ودّك من نصحك.

قال بعض السلف: من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبّخه.

قال عبد العزيز بن أبي رواد رحمه الله: كان من كان قبلكم إذا رأى الرجل من أخيه شيئاً يأمره في رفق فيؤجر في أمره ونهيه، وإن أحد هؤلاء يخرق بصاحبه فيستغضب أخاه ويهتك ستره.

فائدة : ٦

وهذا الحديث يفيد بعمومه ورواياته أنه يجب أن ينصح المسلم لأخيه المسلم في جميع جوانب الحياة وليس في جانب واحد بل دنيا وأخرى.

وجرير بن عبد الله قد بايع الرسول ﷺ على النصح لكل مسلم، قد طبق ذلك:

فقد ذكر النووي في شرح مسلم: أن جريراً أمر مولاه أن يشتري له فرساً، فاشترى له فرساً بثلاثمائة درهم وجاء به وبصاحبه لينقده الثمن، فقال جرير لصاحب الفرس: فرسك خير من ثلاثمائة درهم، أتبيعه بأربعمائة درهم؟ قال: ذلك إليك يا أبا عبد الله. فقال: فرسك خير من ذلك أتبيعه بخمسمائة درهم؟ ثم لم يزل يزيد مائة فمائة وصاحبه يرضى وجرير يقول فرسك خير إلى أن بلغ ثمانمائة درهم فاشتراه بها. فقيل له بذلك فقال: إني بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم.

هكذا يفعل صحابة الرسول ﷺ في النصح للمسلمين في أمور دينهم ودنياهم ولنا فيهم أسوة (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيد).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: فإن المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى.

فائدة : ٧

وقد وَرَد في أحاديث كثيرة النصح للمسلمين عمومًا، وفي بعضها النصح لولاة أمورهم، وفي بعضها نصح ولاة الأمور لرعاياهم.

فأما الأول – وهو النصح للمسلمين عمومًا – ففي "الصحيحين" عن جرير بن عبد الله ﷺ قال (بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم) .

وفي "صحيح مسلم" عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال (حَقّ المؤمن على المؤمن ست"، فذكر منها: "وإذا استنصحك فانصح له) .

وفي "المسند" عن حكيم بن أبي يزيد، عن أبيه، عن النبيّ ﷺ قال (إذا استنصح أحدكم أخاه فلينصح له) .

وأما الثاني – وهو النصح لولاة الأمور، ونصحهم لرعاياهم – :

ففي "صحيح مسلم" عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال (إن الله يرضى لكم ثلاثًا: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا، ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من وَلّاه الله أمركم) .

وفي "المسند" وغيره، عن جبير بن مُطعِم ﷺ أن النبي ﷺ قال في خطبته بالْخَيْف من منى (ثلاثٌ لا يُغِلُّ عليهنّ قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين) .

وفي "الصحيحين" عن معقل بن يسار ﷺ عن النبي ﷺ قال (ما من عبد يسترعيه الله رعيةً، ثم لم يُحِطْها بنصحه، إلا لم يدخل الجنة) .

فائدة : ٨

ومن أعظم النصح أن ينصح لمن استشاره في أمره.

كما قال ﷺ (إذا استنصح أحدكم أخاه فلينصحه).

وكذلك النصح في الدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قالت له فاطمة بنت قيس: قد خطبني أبو جهم ومعاوية، فقال لها: أما أبو جهم فرجل ضراب للنساء، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، فبين النبي ﷺ حال الخاطبين للمرأة، فإن النصح في الدين أعظم من النصح في الدنيا، فإذا كان النبي ﷺ نصح المرأة في دنياها فالنصيحة في الدين أعظم.

فائدة : ٩

آداب النصيحة:

أولاً: الإخلاص لله عز وجل.

فلابد أن يقصد بنصحه وجه الله تبارك وتعالى كما في حديث عمر (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى).

ثانياً: ألا يقصد التشهير.

ثالثاً: أن يكون النصح سراً.

قال الشافعي: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.

يقول الحافظ ابن رجب رحمه الله: وكان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه سراً.

قال بعضهم: من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبخه.

قال الشاعر:

تغمدني بنصحك في انفرادي ... وجنّبني النصيحةَ في الجماعة

فإن النصحَ بين الناسِ نوعٌ ... من التوبيخِ لا أرضى استماعه

رابعاً: أن يكون النصح بلطف وأدب ورفق ولا يثقل على الناصح ولا يكثر عليه.

كما جاء في الحديث عن عائشة أن النبي ﷺ قال (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه).

خامساً: اختيار الوقت المناسب للنصيحة.

فائدة : ١٠

تحريم الغش والخديعة.

فائدة : ١١

بيان مكانة النصح في الإسلام، حيث اعتنى به الشارع فكان يبايع عليه.

فائدة : ١٢

النَّصِيحَةُ صِدْقٌ فِي إِسْلامِ العَبْدِ.

فائدة : ١٣

أَدَاءُ الحُقُوقِ لأَهْلِهَا.

فائدة : ١٤

حُبُّ الخَيْرِ للغَيْرِ.

فائدة : ١٥

الحِرْصُ عَلَى هِدَايَةِ الخَلْقِ.

الحديث الثامن

عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ) متفق عليه .

==========

(أمرت) أمرني الله.

(الناس) عبدة الأوثان والمشركين.

(حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ) جُعلت غاية المقاتلة وجود ما ذكر، فمقتضاه أن من شهد وأقام وآتى عصم دمه ولو جحد باقي الأحكام؟ والجواب: أن الشهادة بالرسالة تتضمن التصديق بما جاء به، مع أن نص الحديث

(إلا بحق الإسلام) يدخل فيه جميع ذلك.

(وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ) أي: يؤدوها بخشوعها وأركانها وسننها.

(ويؤتوا الزكاة) يدفعوها إلى مستحقيها.

(**فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ**) أي: ما ذكِر من الشهادة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

(**عصموا**) حفظوا ومنعوا.

(**إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلاَمِ**) وفي رواية (إلا بحقها) أي: بحق الدماء والأموال، وأراد بحق الدماء ما جاء في حديث ابن مسعود قال: قال ﷺ (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس ...) وبحق الأموال الزكاة ونحوها من الحقوق المتعلقة بها.

(**وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ**) أي: يعاملون بالظاهر وأما الباطن فإلى الله، قال ابن رجب: يعني أن الشهادتين مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تعصم دم صاحبها وماله في الدنيا، إلا أن يأتي ما يبيح دمه، وأما في الآخرة فحسابه على الله، فإن كان صادقاً أدخله الله الجنة، وإن كان كاذباً فإنه من جملة المنافقين.

فائدة : ١

في هذا الحديث ذكر النبي ﷺ أمران:

الأول: ما يثبت به الإسلام، وهو الشهادتان، فمن جاء بهما ثبت له عقد الإسلام وصار مسلماً معصوم الدم والمال.

والثاني: ما يبقى به الإسلام وأعظمه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

فليس معنى الحديث أن العبد يُقاتَل حتى يأتي بالشهادتين ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، وأنه لا يكف عنه إلا بعد اجتماعها، وذلك لأن دلائل الوحيين ظاهرة في الاكتفاء بالشهادتين لعصمة الدم والمال، ولكنه إذا جاء بهما عصمته حالاً ثم لزمه ما بقي وراء الشهادتين من أحكام الدين المعظمة.

فالاقتصار على النطق بالشهادتين كافٍ لعصمة النفس والمال ..

والنبي ﷺ كان يقبل من كل من جاءه يريد الإسلام الشهادتين فقط، ويعصم دمه بذلك ويجعله مسلماً، ويؤيد هذا أحاديث قولية صحيحة لم يذكر فيها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة:

ففي الصحيحين عن أبي هريرة. أن النبي ﷺ قال (أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقها وحسابه على الله).

وفي رواية لمسلم (حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به).

وروى مسلم عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبدُ من دون الله، حرم الله دمه وماله وحسابه على الله).

وأنكر النبي ﷺ على أسامة بن زيد قتله لمن قال: لا إله إلا الله، واشتد نكيره عليه.

فائدة : ٢

قوله ﷺ (فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ...) أي: صارت دماؤهم وأموالهم حراماً غير حلال لما علِم من ظاهرِهم دون اعتداد بباطنهم.

وهذه العصمة نوعان:

أحدهما: عصمة الحال.

ويُكتفَى فيها بالشهادتين، فمن أقر بالشهادتين عُصِم دمه وماله حالاً.

والثاني: عصمة المآل .

ولا يكتفَى فيها بالشهادتين، بل لابد من الإتيان بحقوقِهما من أركان الإسلام وغير ذلك من الشرائع، وعندئذ يُحكم ببقاء إسلامه وامتداد ما ثبت له من العصمة ابتداءً.

فائدة : ٣

الحديث دليل على وجوب مقاتلة الكفار (مع القدرة) حتى يسلموا وينطقوا بالشهادتين، وحتى لا يبقى شرك.

قال تعالى (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) (لا تكون فتنة) أي لا يبقى شرك، لأن الدين لا يكون كله لله ما دام في الأرض مشرك.

ولقوله ﷺ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ...).

فائدة : ٤

المراد بقوله (أمرت أن أقاتل الناس) ما عدا أهل الكتاب، لأن هؤلاء تؤخذ منهم الجزية، وأما غيرهم فيقاتلون إذا لم يسلموا (وهذا مذهب كثير من العلماء).

فائدة : ٥

الحديث دليل على أن أول واجب على المكلف هو النطق بالشهادتين لا النظر والاستدلال.

وقد قال ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن (فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله).

فائدة : ٦

عظم التوحيد وأنه سبب لحقن الدم.

فائدة : ٧

فضل الجهاد في سبيل الله وقتال الكفار، وأنه ينقسم إلى قسمين:

قسم طلب، وقسم دفاع.

فائدة : ٨

أن الأحكام تجري على الظاهر والله يتولى السرائر لقوله ﷺ (وحسابهم على الله) فمن أظهر لنا الإسلام وقام بما يجب عليه عصم دمه وماله وعومل معاملة المسلمين.

وقد جاءت أحاديث كثيرة كلها تدل على هذا الأصل : أن الحكم في الدنيا على الظاهر دون الباطن .

قال النووي: القاعِدةُ المعروفةُ في الفِقهِ والأصولِ: أنَّ الأحكامَ يُعمَلُ فيها بالظَّاهِرِ، واللهُ يتولَّى السَّرائِرَ .

وقال ابنُ تيميَّةَ: إنَّ الإيمانَ الذي عُلِّقَت به أحكامُ الدُّنْيا، هو الإيمانُ الظَّاهِرُ، وهو الإسلامُ، فالمسَمَّى واحِدٌ في الأحكامِ الظَّاهرةِ.

وقال الشَّاطبي: إنَّ أصلَ الحُكمِ بالظَّاهِرِ مَقطوعٌ به في الأحكامِ خُصوصًا، وبالنِّسبةِ إلى الاعتقادِ في الغيرِ عُمومًا؛ فإنَّ سَيِّدَ البَشَرِ مع إعلامِه بالوَحْيِ يُجري الأمورَ على ظواهِرِها في المنافِقين وغيرِهم، وإن عَلِمَ بواطِنَ أحوالِهم، ولم يكُنْ ذلك بمُخْرِجِه عن جَرَيانِ الظَّواهِرِ على ما جَرَت عليه .

وقال ابنُ حَجَر :كلُّهم أجمعوا على أنَّ أحكامَ الدُّنْيا على الظَّاهِرِ، واللهُ يتوَلَّى السَّرائِرَ .

أ-عن أَبي عبدِ الله طارِق بن أشَيْم ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُول الله ﷺ يقول (مَنْ قالَ لاَ إلهَ إلاَّ الله، وَكَفَرَ بمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى الله تَعَالَى». رواه مسلم.

ب–وعن أَبي معبد المقداد بن الأسْود ﷺ قَالَ: قُلْتُ لرسول الله ﷺ (أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الكُفَّارِ، فَاقْتَتَلْنَا، فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ، فَقَطَعَها، ثُمَّ لاَذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ، فَقَالَ: أَسْلَمْتُ لِلهِ، أَأَقْتُلُهُ يَا رَسُول الله بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟ فَقَالَ: «لاَ تَقْتُلهُ» فَقُلْتُ: يَا رَسُول الله، قَطَعَ إِحْدَى يَدَيَّ، ثُمَّ قَالَ ذلِكَ بَعْدَ مَا قَطَعَهَا؟! فَقَالَ: «لَا تَقتُلْهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ التي قَالَ) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

ج–وعن أُسَامة بن زيدٍ رضي الله عنهما، قَالَ (بعثنا رَسُول الله ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ فَصَبَّحْنَا القَوْمَ عَلَى مِيَاهِهِمْ، وَلَحِقْتُ أنَا وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشَيْنَاهُ، قَالَ: لاَ إِلهَ إِلاَّ الله، فَكفَّ عَنْهُ الأَنْصَاري، وطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا المدِينَةَ، بَلَغَ ذلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لِي: «يَا أُسَامَة، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ؟!» قُلْتُ: يَا رَسُول الله، إِنَّمَا كَانَ متعوِّذًا، فَقَالَ: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ؟!» فما زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذلِكَ اليَوْمِ) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وفي رواية: فَقَالَ رَسُول الله ﷺ (أَقَالَ: لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وقَتَلْتَهُ؟!» قُلْتُ: يَا رَسُول الله، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِن السِّلاحِ، قَالَ: : أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لاَ؟!) فمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئذٍ.

د–وعن جندب بن عبد الله ﷺ الحديث : قَالَ رَسُول الله ﷺ «أَقَتَلْتَهُ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَكَيفَ تَصْنَعُ بلاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ، إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ؟» قَالَ: يَا رَسُول الله، اسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ: «وكَيفَ تَصْنَعُ بِلا إِلهَ إِلاَّ الله إِذَا جَاءتْ يَوْمَ القِيَامَةِ؟» فَجَعَلَ لاَ يَزِيدُ عَلَى أَنْ يَقُولَ: «كَيفَ تَصْنَعُ بِلاَ إِلهَ إِلاَّ الله إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ». رواه مسلم.

ففي الحديث زجر شديد وتحذير من الإقدام على قتل من تلفظ بالتوحيد ، وتحذير صريح من تجاوز الظاهر والحكم على ما في القلب دون بينة .

قال النووي : قَولُه ﷺ (أفلا شَقَقْتَ عن قَلْبِه حتى تعلَمَ أقالَها أم لا)؟ الفاعِلُ في قوله (أقالَها) هو القَلْبُ، ومعناه: أنَّك إنَّما كُلِّفْتَ بالعَمَلِ بالظَّاهِرِ، وما ينطِقُ به اللِّسانُ، وأمَّا القَلْبُ فليس لك طريقٌ إلى معرفةِ ما فيه. فأنكَرَ عليه امتناعَه من العَمَل بما ظَهَر باللِّسانِ، وقال: أفلا شقَقْتَ عن قَلْبِه لتنظُرَ: هل قالها القَلْبُ واعتقَدَها وكانت فيه أم لم تكُنْ فيه بل جَرَت على اللِّسانِ فحَسْبُ؟ يعني: وأنت لستَ بقادِرٍ على هذا، فاقتَصِرْ على اللِّسانِ فحَسْبُ .

وقال رحمه الله : فيه دليل على القاعدة المعروفة في الفقه والأصول أن الأحكام فيها بالظاهر والله يتولى السرائر .

هـ–وعن عبد الله بن عتبة بن مسعود، قَالَ: سَمِعْتُ عمر بن الخطاب ﷺ يقولُ (إِنَّ نَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالوَحْيِ في عَهْدِ رَسُول الله ﷺ وَإِنَّ الوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ، وإِنَّمَا نَأْخُذُكُمُ الآن بما ظَهَرَ لَنَا مِنْ أعمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمَّنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ لَنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، اللهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ وَإِنْ قَالَ: إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ) رواه البخاري.

فائدة : ٩

قوله (**إلا بحقها**) كأن يرتكب ما يبيح دم المسلم: كالقتل – أو الزنا للمحصن – أو الردة.

لقوله ﷺ (لا يحل دم امراء مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة) متفق عليه.

فائدة : ١٠

أهمية الصلاة وأنها تأتي بالمرتبة الثانية بعد الشهادتين.

فائدة : ١١

أهمية الزكاة، وأنها تأتي بالمرتبة الثالثة بعد الصلاة.

فائدة : ١٢

إثبات الحساب والجزاء يوم القيامة.

فائدة: ١٣

كثيراً ما يقرن الله تبارك وتعالى بين الصلاة والزكاة:

فقيل: إن الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وسعادة العبد دائرة بين الأمرين: إخلاصه لمعبوده، وسعيه في نفع الخلق.

وقيل: الصلاة رأس العبادات البدنية، والزكاة رأس العبادات المالية.

وقيل: الصلاة طهارة للنفس والبدن، والزكاة طهارة للمال.

الحديث التاسع

عن أبي هُرَيْرَةَ . قال : قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلاَفُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِم) متفق عليه .

==========

(**ما نهيتكم**) عن شيء من المحرمات .

والنهي طلب الكف على وجه الاستعلاء .

(**اجتنبوه**) ابتعدوا عنه وفي رواية (دَعُوه) .

(**وما أمرتكم**) الأمر طلب الفعل على وجه الاستعلاء .

(**ما استطعتم**) ما قدرتم عليه .

(**أهلك**) صار سبب الهلاك .

(**من قبلكم**) كاليهود والنصارى .

(**كثرة مسائلهم**) أي :كثرة أسئلتهم التي كانوا يسألونها وليس وجه شرعي ،كسؤال الرؤية، والكلام، وقضيّة البقرة.

تنبيه :

قد جاء في صحيح مسلم : عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ (أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا، فَقَالَ رَجُلٌ أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلاَثاً فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ -ثُمَّ قَالَ- ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوه) رواه مسلم

فائدة : ١

قال النووي رحمه الله: هذا الحديث من قواعد الإسلام المهمة، ومن جوامع الكلم التي أعطيها النبي ﷺ، ويدخل فيما لا يحصى من الأحكام .

قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: هو حديث عظيم من قواعد الدين وأركان الإسلام، فينبغي حفظه والاعتناء به .

فائدة : ٢

وجوب الكف عما نهى عنه النبي ﷺ .

وهذا النهي ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : نهي تحريم .

كالشرك ، وقتل النفس ، والربا ، وشرب الخمر ، والغيبة ، والنميمة ، وغيرها .

فهذا يجب اجتنابه والابتعاد عنه .

القسم الثاني : نهي كراهة .

وذلك أن الشارع نهى عن تصرفات ، لكن قامت الأدلة على أن هذا النهي للكراهة وليس للتحريم .

فهذا الأفضل اجتنابه وتركه .

فائدة : ٣

أن ما نهى عنه الشرع يجب اجتنابه والابتعاد عنه جملة وتفصيلاً ، ولا يجوز للمكلف فعل شيء منه .

فالربا يجب اجتناب قليله وكثيره .

فائدة : ٤

يجوز فعل المحرم للضرورة ، لأن القاعدة [لا محرم مع الضرورة] .

لقوله تعالى (وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه) .

ومعنى الضرورة إلى المحرم : أن لا يجد سوى هذا المحرم ، وتندفع به الضرورة .

مثال : يجوز الأكل من الميتة للمضطر .

فائدة : ٥

ينبغي فعل ما أمرنا به النبي ﷺ على قدر الاستطاعة ... وما أمرنا به ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : واجبات ، فهذا يثاب فاعله ويعاقب تاركه .

كالصلاة ، والزكاة ، والصيام .

القسم الثاني : مستحبات ، فهذه يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها .

كالسنن الرواتب ، والسواك .

فالواجبات : يجب على المسلم أن يؤديها كما أمر ، فإن لم يستطع فعلى قدر استطاعته (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها).

مثال : القيام في الصلاة الفريضة ركن ، فإذا عجز عنه الإنسان فإنه يصلي جالساً .

وأما المستحبات : فالأفضل للمسلم أن يحرص عليها وأن يجتهد في الإكثار منها على حسب استطاعته .

مثال : قيام الليل : فالأفضل أن يصلي من الليل ولو شيئاً قليلاً .

قال النوويّ – رَحِمَهُ اللهُ –: هذا من قواعد الإسلام المهمّة، ومن جوامع الكلم التي أُعطيها ﷺ، ويدخل فيه ما لا يُحصَى من الإحكام؛ كالصلاة بأنواعها، فإذا عجز عن بعض أركانها، أو بعض شروطها أتى بالباقي، وإذا عجز عن بعض أعضاء الوضوء، أو الغسل غَسَل الممكن، وإذا وجد بعض ما يكفيه من الماء لطهارته، أو لغسل النجاسة، فَعَل الممكن، وإذا وجبت إزالة منكرات، أو فطرة جماعة من تلزمه نفقتهم، أو نحو ذلك، وأمكنه البعض فعل الممكن، وإذا وجد ما يستر بعض عورته، أو حَفِظَ بعض الفاتحة أتى بالممكن، وأشباه هذا غير منحصرة.

فائدة : ٦

قال النوويّ رحمه الله: وهذا الحديث موافق لقول الله تعالى (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) .

وأما قوله تعالى (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) ففيها مذهبان:

أحدهما: أنها منسوخة بقوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}.

والثاني: – وهو الصحيح، أو الصواب–، وبه جزم المحققون أنها ليس منسوخةً، بل قوله تعالى (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) مفسّرة لها، ومبيّنة للمراد بها. قالوا: وحقّ تقاته، هو امتثال أمره، واجتناب نهيه، ولم يأمر الله سبحانه وتعالى إلا بالمستطاع .

قال الله تعالى (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) .

وقال تعالى (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) . (نووي) .

وقال ابن حجر : وزعم بعضهم أن قوله تعالى (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) نَسَخَ قولَهُ تعالى (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) والصحيح أن لا نسخ، بل المراد (حَقَّ تُقَاتِهِ) امتثال أمره، واجتناب نهيه مع القدرة، لا مع العجز.

فائدة : ٧

يجب طاعة الرسول والانقياد لأمره .

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ...) .

وطاعة النبي ﷺ لا تتحقق إلّا بامتثال ما أمر واجتناب ما نهى.

وطاعة النبي شرط من شروط الإيمان، وقد حذرنا الله من مخالفته وعصيانه، فقال تعالى: (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ).

وأوجب علينا تصديق خبره، واتباع أمره، وجعل طاعته فرضا لازما، فهي مفتاح الجنة، وسبيل الهداية، فقال تعالى (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا).

وقد أمر الله ـ عز وجل ـ عباده المؤمنين بطاعة النبي ﷺ وألزمهم بها في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وكذا على لسان نبيه ﷺ .

وهذا الأمر معلوم من الدين بالضرورة، ولا يسع أحد إنكاره.

قال أحمد بن حنبل: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ثلاثة وثلاثين موضعاً.

وقال ابن تيمية: أمر الله بطاعة رسوله في أكثر من ثلاثين موضعاً من القرآن، وقَرَنَ طاعته بطاعته، وقرن بين مخالفته ومخالفته، كما قرن بين اسمه واسمه، فلا يُذكر الله إلا ذُكِر معه .

فائدة : ٨

فضائل طاعة الله ورسوله:

أولاً: سبب للرحمة.

قال تعالى: (وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ).

وقال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ).

وقال تعالى (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

ثانياً: مع الذين أنعم الله عليهم.

قال تعالى: (وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ).

ثالثاً: سبب للحياة الحقيقية.

قال تعالى: (اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ).

رابعاً: سبب للهداية.

قال تعالى: (وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا).

وقال تعالى: (وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ).

خامساً: طاعته من أركان الإيمان.

قال تعالى (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً).

سادساً: سبب لدخول الجنة.

وقال تعالى (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً).

سابعاً : طاعته سبب في حُب الله تعالى للعبد.

قال تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّه).

ثامناً : طاعته سبب في مغفرة الذنب.

قال تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

تاسعا : طاعته طاعة لله تعالى.

قال تعالى (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظ).

فائدة : ٩

(مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأنه من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

قال القرطبي: قوله تعالى (منْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله) أعلم الله تعالى أن طاعة رسوله ﷺ طاعةٌ له.

وقال السعدي: كل مَنْ أطاع رسول الله في أوامره ونواهيه (فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) تعالى لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله وشرعه ووحيه وتنزيله، وفي هذا عصمة الرسول ﷺ، لأن الله أمر بطاعته مطلقاً، فلولا أنه معصوم في كل ما يُبَلِّغ عن الله لم يأمر بطاعته مطلقاً، ويمدح على ذلك . (السعدي) .

وقد جاء في الحديث قال ﷺ (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله) متفق عليه.

وطاعة الرسول ﷺ سبب لمحبة الله كما قال تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ).

فائدة : ١٠

أن من أسباب هلاك الأمم كثرة مسائلهم .

والأسئلة التي هي سبب للهلاك :

أ- السؤال تعنتاً وتعمقاً .

ب- السؤال بما لا فائدة منه ولا حاجة له .

ج- السؤال على وجه الاستهزاء والسخرية والعبث .

د- كثرة السؤال في المسائل التي لم تقع .

هـ- السؤال عما أخفاه الله عن خلقه لحكمة يعلمها سبحانه ، مثل السؤال عن سر القضاء والقدر ، وعن قيام الساعة .

وأما السؤال للعلم والعمل وبما يهم الإنسان فهذا مطلوب ومحمود .

قال تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ .

وقال ﷺ : (نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء من التفقه في الدين) .

ولما سئل ابن عباس ، كيف نلت العلم ؟ قال : " بلسان سؤول ، وقلب عقول ، وجسم غير ملول " .

وقيل : السؤال نصف العلم .

وقال الزهري : العلم خزانة ، مفتاحها المسألة .

قال البغويّ رحمه الله في "شرح السنّة": المسائل على وجهين:

أحدهما : ما كان على وجه التعليم لما يُحتاج إليه من أمر الدين، فهو جائز، بل مأمور به؛ لقوله تعالى (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ) وعلى ذلك تتنزّل أسئلة الصحابة ﷺ عن الأنفال، والكلالة، وغيرهما.

ثانيهما : ما كان على وجه التعنّت والتكلّف، وهو المراد في هذا الحديث، والله أعلم.

ويؤيّده ورود الزجر في الحديث عن ذلك، وذمّ السلف .

فعند أحمد من حديث معاوية (أن النبيّ ﷺ نَهَى عن الأغلوطات) .

قال الأوزاعيّ: هي شداد المسائل .

وقال الأوزاعيّ أيضًا: إن الله إذا أراد أن يَحْرِمَ عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط، فلقد رأيتهم أقلّ الناس علمًا.

وقال ابن وهب: سمعت مالكًا يقول: المراء في العلم يذهب بنور العلم من قلب الرجل .

الحديث العاشر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وَقَالَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ». ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ) .

==========

(**إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ**) الطيب : اسم من أسماء الله ومعناه المنزه عن النقائص .

(**لا يقبل إلا طيباً**) أي : من الأعمال إلا أطيبها وأخلصها .

(**وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ**) المراد بها أكل الحلال، وتحسين الأموال .

(**يُطِيلُ السَّفَرَ**) أي: زمانه، ويُكثر مباشرته، في العبادات، كالحجّ، والعمرة، والجهاد، وتعلم العلم، وسائر وجوه الخيرات.

(**أَشْعَثَ**) ثائر شعر الرأس؛ لعدم تسريحه ومشطه.

(**أَغْبَرَ**) أي : غيَّر الغبارُ لون شعره.

(**وَغُذِىَ بِالْحَرَامِ**) بضم الغين، وكسر الذال المعجمة المخففة- كذا ضبطه النوويّ -رحمه الله-والمعنى رُبِّي بالحرام؛ أي: من صغره إلى كبره .

(**فَأَنَّى**) أي : فكيف .

(**يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ**) والاستفهام لاستبعاد الاستجابة .

فائدة : ١

أهمية هذا الحديث :

قال الإمام النووي – رحمه الله –: هذا الحديث أحد الأحاديث التي عليها قواعد الإسلام، ومباني الأحكام .

قال الطوفي رحمه الله: واعلم أن هذا الحديث عظيم النفع؛ لأنه يتضمن بيان حكم الدعاء، وشرطه، ومانعه .

فائدة : ٢

قوله (إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ) .

فيه إثبات الطيب من أسماء الله .

قال ابن رجب : قوله ﷺ (إن الله طيّبٌ) هذا قد جاء أيضًا من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ، عن النبيّ ﷺ قال (إن الله طيّب يحب الطيب، نظيفٌ يحب النظافة، جوادٌ يحبّ الجود"، أخرجه الترمذيّ، وفي إسناده مقال .

والطيّب هنا معناه: الطاهر، والمعنى أن الله –عز وجل– مُقَدَّسٌ منزهٌ عن النقائص والعيوب كلها، وهذا كما في قوله تعالى (وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ) ، والمراد المنزهون من أدناس الفواحش وأوضارها.

قال النووي رحمه الله: قال القاضي: الطيب في صفة الله تَعَالَى بمعنى: المنَزَّه عن النقائص، وهو بمعنى القدوس، وأصل الطيب: الزكاء والطهارة والسلامة من الخبث .

فائدة : ٣

قوله (لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا) .

أي : لا يقبل من الصدقات ونحوها من الأعمال إلا طيبًا أي: منزهًا عن العيوب الشرعية، والأغراض الفاسدة في النيّة.

قال القاضي البيضاويّ –رحمه الله–: الطيّب ضد الخبيث، فإذا وُصف به الله تعالى أُريد به أنه مُنَزَّه عن النقائص، مُقَدَّس عن الآفات والعيوب، وإذا وُصف به العبد مطلقًا أُريد به أنه المتَعَرِّي عن رذائل الأخلاق، وقبائح الأعمال، والمتحلِّي بأضداد ذلك، وإذا وُصف به الأموال أُريد به كونه حلالًا، من خيار الأموال.

ومعنى الحديث أنه تعالى مُنَزَّه عن العيوب، فلا يَقْبَل، ولا ينبغي أن يُتَقَرَّب إليه إلا بما يناسبه في هذا المعنى، وهو خيار أموالكم الحلال، كما قال تعالى (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) .

وقال الحافظ ابن رجب –رحمه الله–: قوله (لا يقبل إلا طيبًا) قد ورد معناه في حديث الصدقة، ولفظه (لا يتصدق أحدٌ بصدقة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيبًا) متّفقٌ عليه، والمراد أنه تعالى لا يقبل من الصدقات إلا ما كان طيبًا حلالًا.

وجاء في تحفة الأحوذي : ومعنى الحديث أنه تعالى منزهٌ عن العيوب ، فلا يَقبل ولا ينبغي أن يُتقرَّب إليه إلا بما يناسبه في هذا المعنى ، وهو خيار أموالكم الحلال .

فالله سبحانه وتعالى طيب لا يقبل إلا الطيب ولا يصعد إليه من الأقوال والأعمال ، ولا ينبغي أن يتقرب إليه العباد إلا بالطيب من ذلك .

قال عز وجل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَات مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيد) .

وروى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال (من تصدَّق بعَدْل تمرةٍ من كسبٍ طيب –ولا يقبل الله إلا الطيب– فإن الله يتقبَّلها بيمينه ثم يُربيها لصاحبها كما يُربِّي أحدكم فلوَّه ، حتى تكون مثل الحبل) .

فلا يقبل الله تعالى الصَّدقة بالحرام ، لأنه تصرفٌ فيما لا يملك ، فمن تصدَّق من ربا أو سرقة أو غلولٌ فإن الله تعالى لا يقبله ، كما قال ﷺ (لا تُقبلُ صلاةٌ بغير طُهور ، ولا صدقةٌ من غُلُول) .

وكذلك كل الأقوال والأعمال لا يقبل الله عز وجل منها إلا الطيب الصالح .

قال عز وجل (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمَ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعَه) .

كذا الطيبون أهل الإيمان به عز وجل ومن اتبع رضوانه وعَمَر قلبه بمحبته ، فإنهم لا يُحبون إلا الطَّيب من القول ، ولا يتكلمون إلا بالحسن من الكلام .

كما قال الله تعالى في وصفهم (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) .

قال مجاهد وابن جبير وأكثر المفسرين : المعنى : الكلماتُ الخبيثاتُ – من القول – للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من القول ، وكذا الكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس ، والطَّيبون من الناس للطيبات من القول .

وقيل المعنى : الخبيثاتُ من النساء للخبيثين من الرجال ، وكذا الطيبات للطيبين .

وأخبر عز وجل أنه يهدي أهل الجنة للكلمات الطيبة ، ويحفظ لسانهم عن الخبيث من القول .

قال سبحانه (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيد) .

وجاء في الحديث الصحيح (يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس) .

فائدة : ٤

في هذا الحديث إشارةٌ إلى أنه لا يُقبَلُ العملُ، ولا يزكو إلا بأكل الحلال، وأن أكل الحرام يفسد العمل، ويمنع قبوله، فإنه قال بعد تقريره (إن الله لا يقبل إلا طيبًا) وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى (يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا).

وقال (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُون) .

والمراد بهذا أن الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال، وبالعمل الصالح، فما كان الأكل حلالًا، فالعمل الصالح مقبول، فإذا كان الأكل غير حلال، فكيف يكون العمل مقبولًا؟ وما ذكره بعد ذلك من الدعاء، وأنه كيف يتقبل مع الحرام، فهو مثال لاستبعاد قبول الأعمال مع التغذية بالحرام.

فائدة : ٥

فضل أكل الحلال .

قال تعالى (كلوا من طيبات ما رزقناكم) .

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) .

وقال سبحانه (كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه) .

قال الفضيل: من عرف ما يدخل جوفه كتب عند الله صديقاً.

وقال سهل التستري: من أكل الحلال أطاع الله شاء أم أبى، ومن أكل الحرام عصى الله شاء أم أبى.

وسُئِل الإمام أحمد رحمه الله: بِمَ تلين القلوب؟ قال: بأكل الحلال.

وقال عمر بن الخطاب: بالورع عما حرَّم الله يُقبل الدعاء والتسبيحُ.

وقال سهل بن عبد الله :النجاة في ثلاثة: أكل الحلال، وأداء الفرائض، والاقتداء بالنبي ﷺ .

وقال أبو عبدالله الباجي: خمس خصال بها تَمامُ العمل: الإيمان بالله، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل على السُّنة، وأكل الحلال .

فائدة : ٦

قال يوسف بن أسباط : إذا تعبد الشاب يقول إبليس: انظروا من أين مطعمه؟ فإن كان مطعمه مطعم سوء، قال: دَعُوه، لا تَشتغلوا به، دَعُوه يجتهد ويَنْصَب، فقد كفاكم نفسَه!

فائدة : ٧

خطر أكل الحرام ، وله عواقب وخيمة :

أولاً : من أسباب عدم إجابة الدعاء .

لحديث الباب .

عن مالك بن دينار رحمه الله قال: أصابَ بني إسرائيل بلاءٌ وقحطٌ، فخرجوا يُضِجُّون، فأوحى الله إلى نبيٍّ من أنبيائهم أن أخبِرهم: تخرجون إلى الصعيدِ بأبدانٍ نجِسَةٍ، وأيدٍ قد سفكتُم بها الدماءَ، وملأتم بطونَكم من الحرامِ؟ الآن حين اشتدَّ غضبي عليكم، ولن تزدادُوا مني إلا بُعدًا".

وقال بعض السلف: لا تستبطئ الإجابة وقد سددت طرقها بالمعاصي.

وعن وهب ابن منبه رحمه الله قال: من سره أن يستجيب الله دعوته، فليُطِب طعمته.

ثانياً : محق البركة:

قال الله تعالى (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) .

قال العلماء: يمحق الربا؛ أي: يُذهبه، إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه، أو يحرمه بركة ماله، فلا ينتفع به، بل يعذبه به في الدنيا، ويعاقبه عليه يوم القيامة.

وعن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال (ما أحدٌ أكثرَ من الربا إلا كان عاقبَةُ أمرِه إلى قِلَّة) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ (الحَلِفُ مَنفَقةٌ للسلعةِ، ممحَقةٌ للربح) .

وعن حكيم بن حزام ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (البيِّعانِ بالخِيارِ ما لم يتفرَّقَا – أو قال: حتى يتفَرَّقا – فإن صدَقا وبيَّنَا، بورِك لهما في بيعِهما، وإن كتمَا وكذَبا، مُحِقَتْ بركةُ بيعِهما) .

ثالثاً : الخسارة والهلاك:

قال الله عز وجل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُون) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يُقَالُ يومَ القيامة لآكل الربا: خذ سلاحَك للحربِ، قال (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) .

رابعاً : من أسباب دخول النار .

قال ﷺ (أيما جسم نبت على سحت فالنار أولى به) رواه أحمد.

وعن خولَةَ الأنصارية رضي الله عنها قالت: سمعت النبي ﷺ يقول (إن رجالًا يتخوَّضون في مالِ الله بغيرِ حقٍّ، فلهم النارُ يومَ القيامةِ) .

وعن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال (إنما أنا بشَرٌ، وإنكم تختَصمون إليَّ، ولعلَّ بعضَكم أن يكونَ ألحَنَ بحجَّتِه من بعضٍ، وأقضِي له على نحو ما أسمَعُ، فمن قضَيتُ له من حق أخيه شيئًا، فلا يأخذ، فإنما أقطع له قطعة من النار) .

خامساً : عدم قبول صدقته .

قال ﷺ (لا تُقبَلُ صلاةٌ بغيرِ طُهُورٍ، ولا صدقةٌ من غُلُولٍ) .

فائدة : ٨

الحديث دليل على أن التوسع في أكل الحرام شرباً وأكلاً ولبساً وتغذية من أسباب منع إجابة الدعاء .

وقال ﷺ لسعد (أطب مطعمك تكن مجاب الدعوة) .

قال يوسف بن أسباط : بلغنا أن دعاء العبد يحبس عن السموات بسوء المطعم .

ومن موانع إجابة الدعاء :

أن يكون الدعاء في إثم أو ظلم.

لحديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال (ما على الأرض مسلم يدعو بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم) فقال رجل من القوم: إذن نكثر؟ قال: الله أكثر) رواه الترمذي وحسنه

وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (والذي نفسي بيده؛ لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم). رواه أحمد والترمذي

وأن يعتدي في دعائه، كأن يرفع صوته، أو يحدث فيه بدعة.

قال تعالى: (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ).

وقال ﷺ (سيكون قوم يعتدون في الدعاء). رواه أحمد .

فائدة : ٩

وجوب اتباع الرسل .

فائدة : ١٠

الأمر بالأكل من الطيبات .

فائدة : ١١

الحث على العمل الصالح .

والعمل الصالح أمر الله به وحث عليه .

قال تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض ..) .

والعمل الصالح هو الذي يدخل مع الإنسان في قبره .

قال ﷺ (يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ويبقى عمله) متفق عليه .

والعمل الصالح هو الحسب الحقيقي .

قال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ).

قال ﷺ : (من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) رواه مسلم .

وهو أنيسك وجليسك في القبر.

قال النبي ﷺ (إن العبد المؤمن إذا وضع في قبره يأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر برضوان من الله وجنات، أنا عملك الصالح، فوالله ما علمتك إلا كنت سريع في طاعة الله بطيء في معصية الله).

وهو الذي يتمناه الإنسان عند الاحتضار.

قال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ...).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ).

وهو الذي يتمناه الكفار إذا دخلوا النار.

قال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ. وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا. رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ. فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ).

والعمل الصالح سبب لتفريج الكروب.

وقد تقدم حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الغار، فتوسل كل واحد منهم بعمل صالح فانفرجت عنهم.

والعمل الصالح هو الذي يبقى.

قال تعالى (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً).

وهو سبب للحياة الطيبة .

قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً).

وسبب للأمن والاستقرار والتمكين.

قال تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا).

فائدة : ١٢

في هذا الحديث ذكر بعض أسباب إجابة الدعاء :

أولاً : طول السفر :

والسفر بمجرَّده يقتضي إجابةَ الدعاء .

كما في حديث أبي هريرة ، عن النَّبيّ ﷺ (ثلاثُ دعواتٍ مستجابات لا شك فيهن : دعوةُ المظلوم ، ودعوةُ المسافر ، ودعوةُ الوالد لولده) .

ومتى طال السفر ، كان أقربَ إلى إجابةِ الدُّعاء ؛ لأنَّه مَظِنّةُ حصول انكسار النفس بطول الغُربة عن الأوطان ، وتحمُّل المشاق ، والانكسارُ من أعظم أسباب إجابة الدعاء .

ثانياً : الأشعث الأغبر .

وقال ﷺ (رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره) .

قال ابن رجب : حصولُ التبذُّل في اللِّباس والهيئة بالشعث والإغبرار ، وهو – أيضاً – من المقتضيات لإجابة الدُّعاء ، كما في الحديث المشهور عن النَّبيِّ ﷺ (ربَّ أشعث أغبرَ ، مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبرَّه) .

. ولما خرج النَّبيُّ ﷺ للاستسقاء ، خرج متبذِّلاً متواضعاً متضرِّعاً .

وكان مُطَرِّفُ بنُ عبد الله قد حُبِسَ له ابنُ أخٍ ، فلبس خُلْقان ثيابه ، وأخذ عكازاً بيده ، فقيل له : ما هذا ؟ قالَ : أستكين لربي ، لعلَّه أنْ يشفِّعني في ابن أخي .

ثالثاً : رفع اليدين .

قال ﷺ : (إن الله ليستحي من عبده إذا رفع يديه إلى السماء أن يردهما صفراً) .

وكان النَّبيُّ ﷺ يرفع يديه في الاستسقاء حتى يُرى بياضُ إبطيه ، ورَفَعَ يديه يومَ بدرٍ يستنصرُ على المشركين حتى سقط رداؤه عن منكبيه .

رابعاً : الإلحاح على الله بتكرير ذكر ربوبيته .

وهو مِنْ أعظم ما يُطلب به إجابةُ الدعاء .

ومن تأمَّل الأدعية المذكورة في القرآن وجدها غالباً تفتتح باسم الرَّبِّ ، كقوله تعالى (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) وقوله (رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا) . ومثل هذا في القرآن كثير .